الفصل الخامس عشر

فكرة الحرية في فلسفة جان بول سارتر وموقفه تجاه الثورة الجزائرية، ١٩٥٤ ــ ١٩٦٢

عبد المجيد عمراني(*)

أولاً: موضوع الحرية

تهتم هذه الدراسة بتحليل أفكار جان بول سارتر (١٩٠٥ ـ ١٩٨٠) الفلسفية والأدبية والتاريخية، تجاه الثورة التحريرية للشعب الجزائري (١٩٥٤ ـ ١٩٦٢)، وتطور كتاباته التاريخية ونشاطاته السياسية، فضلاً عن الروايات والقصص والمسرحيات، التي أنتجها عبر المراحل والأحداث التاريخية الكبرى للثورة الجزائرية في نهاية الخمسينيات وبداية الستينيات، والتزامه «بفكرة الحرية» التي كان ينادي بها قبل الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥) وبعدها.

والهدف من هذا البحث أيضاً، هو أن أبين حقيقة الفيلسوف الذي التزمت بمواقفه الفلسفية ومبادئه الفكرية تجاه حرية شعب غير شعبه، والذي أصبح في ما بعد مهدداً بالموت من قبل المنظمة العسكرية السرية الإرهابية والمتطرفة (O. A. S)، وبذلك توصل إلى تجسيد المعنى الحقيقي للدفاع عن الحرية في المفاهيم المختلفة للفلسفة والتي تقول إن «حريتي هي حرية الغير».

وعلى هذا الأساس، فإن هدفنا من هذه الإشكالية المطروحة هو أن ننبه المثقفين عامة والعرب بخاصة، ما إذا كان موقف سارتر تجاه الثورة التحريرية الجزائرية نابعاً

(*) عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة باتنة ـ الجزائر.

من مبادئه وأفكاره الفلسفية، أم من موقف المسؤولية الاجتماعية التاريخية تجاه الشعب الجزائري. إضافة إلى توضيح حقيقة المثقف الذي التزم بالإيمان بفلسفته وحريته السياسية وتطور نشاطاته السياسية ومشاركته الفعلية من أجل الدفاع عن «فكرة الحرية» منذُ الحرب العالمية الثانية حتّى الثورة الجزائرية. بالرغم من همجية ووحشية الجيش الفرنسي الذي تحول إلى غستابو (Gestapo)، وأصبح يمارس «النازية الهتلرية» في نهاية الخمسينيات وبداية الستينيات على الشعب الأعزل.

ـ ترى ما هي العوامل الأساسية التي دفعت سارتر إلى الاهتمام بالقضية الجزائرية؟

ـ هل هي نابعة حقيقة من أفكاره الفلسفية ومبادئه السياسية، أم من موقف المسؤولية الاجتماعية؟

لماذا وكيف تطورت كتابات سارتر الفلسفية والسياسية تجاه أساليب التعذيب في الجزائر؟

ـ وهل فعلاً دعم موقفه الفلسفي والسياسي، والتزم بفكرة الحرية التي كان ينادي بها من أجل تحرير الشعب الجزائري من الاستعمار الفرنسي؟

ـ وهل فعلاً كان مطارداً من قبل المنظمة العسكرية السرية الفرنسية بالرغم من منحه جائزة نوبل للآداب في ما بعد عام ١٩٦٤؟

ومجمل هذه الأسئلة في هذا البحث تدفعنا إلى معالجة هذا الموضوع من زاوية فلسفية، وتقسيمه إلى ثلاث نقاط أساسية يمكن الاستعانة بها عند الدراسة والتحليل في هذا المجال وهذه النقاط هي:

١ ـ «فكرة الحرية» في فلسفة جان بول سارتر.

٢ ـ تطور كتابات سارتر الفلسفية ونشاطاته السياسية تجاه أساليب التعذيب في الجزائر.

٣ ـ موقف جان بول سارتر من الثورة التحريرية الجزائرية.

ثانياً: جان بول سارتر

قبل دراستنا لفكرة الحرية عند سارتر، يجدر بنا أن نتطرق أولاً إلى حياته بإيجاز، فمن هو سارتر؟

جان بول شارل أيمارد سارتر (Jean-Paul Charles Aymard Sartre)، ولد في ٢١ حزيران/ يونيو ١٩٠٥ في باريس، بدأ حياته الدراسية في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩١٥

بثانوية هنري الخامس في باريس، وقد كان ناجحاً في دراسته، إذ قال عنه أساتذته إنّه كان «ممتازاً في جميع الميادين»[(١)]. وفي عام ١٩٢٤ دخل سارتر المدرسة العليا للأساتذة حيثُ التقى بعدة طلبة أصبحوا في ما بعد كنخبة فرنسية وسجلوا أسماءهم في تاريخ الفكر المعاصر أمثال ريمون آرون (Raymond Aron) وموريس مورلوبونتي (Maurice Merleau - Ponty) وبول نيزان (Paul Nizan). . . إلخ. إذ قال سارتر في ما بعد في مقدمة لكتاب **عدن عربي** *(Aden Arabie)* لبول نيزان « إن المدرسة العليا للأساتذة في نظر أغلبيتنا وفي نظري أنا شخصياً، كانت منذُ تأسيسها بداية للاستقلال، ويعتقد الكثيرون، مثلما أعتقد بأنهم قضوا بها أربع سنوات من السعادة»[(٢)].

وفي تموز/يوليو ١٩٢٩، التقى سارتر لأول مرة بالكاتبة سيمون دي بوفوار (Simone de Beauvoir) في باريس وقال لها: «انطلاقاً من هنا سآخذك تحت رحمة جناحي»[(٣)]. وهي بداية التعرف والارتباط المتبادل بينهما بحيث كان واضحاً لها بأنّه لا يمكن (لسارتر) الابتعاد عن حياته ولو لحظة واحدة[(٤)]. وفي شباط/فبراير ١٩٣١ أنهى سارتر الخدمة العسكرية التي دامت ١٨ شهراً، حيث تعلم منها مهنة الأرصاد، أي عالم في الأرصاد الجوية، ثُمّ بدأ يدرس الفلسفة في ثانوية لوهافر. وفي أيلول/سبتمبر ١٩٣٣، ذهب إلى ألمانيا حيثُ درس الفلسفة الألمانية بالمعهد الفرنسي في برلين، وأهتم بدراسة فلسفة إدموند هوسرل (Edmund Husserl) (١٨٥٩ ـ ١٩٣٨) وفلسفة مارتن هيدغر (Martin Heidegger) (١٨٨٤ ـ ١٩٧٦)، وهنا كتب مقالته الأولى المشهورة بعنوان «التخيل» ((L'Imaginaire) والتي ظهرت في ما بعد كدراسة سيكولوجية في أبحاث فلسفية (Recherches Philosophique)، وفي عام ١٩٣٨ كتب سارتر روايته الأدبية المشهورة **الغثيان** *(La Nausée)* حيثُ لاقت تشجيعاً من قبل النقاد الأدبيين، ومن هنا بدأ سارتر يكتب المقالات والكتب الأدبية والفلسفية، وأصبح معروفاً في الأوساط الثقافية والعالمية كأديب وكفيلسوف ورجل يهتم بالسياسة. وفي حزيران/يونيو ١٩٤٠ سجن ونقل إلى محتشدات في ألمانيا، وبقي حتى مارس/آذار ١٩٤١، وكان وعمره آنذاك ٣٥ سنة.

---

(١) «Archives of the Lycée Henri IV, 1915-16,» dan: Jean Paul Sartre, *Oeuvres romanesques*. édition établie par Michel Contat et Michel Rybalka; avec la collaboration de Geneviéve Idt et de George H. Bauer, bibliothèque de la pléiade; 295 (Paris: Gallimard, 1981), p. xxxviii.

(٢) انظر مقدمة سارتر، في: Paul Nizan, *Aden-Arabie*, avant-propos de Jean-Paul Sartre (Paris: F. Maspero, 1960), pp. 21-22.

(٣) Simone de Beauvoir, *Memoirs of a Dutiful Daughter*, translated by James Kirkup, Penguin Modern Classics (London: Penguin Books, 1963) p. 339.

(٤) المصدر نفسه، ص ٣٤٥.

وفي ٢٥ حزيران/ يونيو ١٩٤٣ كتب سارتر كتابه المشهور والقيم **الوجود والعدم** *(L'Être et le Néant)* والذي جعله كمفكر ضمن الفلاسفة الوجوديين المعاصرين. وما بين سنتي ١٩٤٠ و١٩٦٠ التزم بالكتابة وبالعمل وبمواقفه الفعلية، وذلك بحسب «فكرة الحرية» عنده وتطورها في كتبه والتي سنتطرق إليها في ما بعد.

ثالثاً: البداية في الأنثولوجيا

حقيقة لم يوجد في تاريخ الفكر الفلسفي المعاصر فيلسوف كتب كجان بول سارتر في مجالات عدة فكرية وأدبية، وفعلاً لم يكن فيلسوفاً فقط، بل كان أيضاً مؤلفاً للروايات والمسرحيات والقصص، وعالماً نفسانياً وعالماً في السياسة والصحافة (إضافة إلى هذا فهو رجل مثير للدهشة والإعجاب)، إذاً فكُلّ من يهتم بدراسة الفلسفة الوجودية كفكر وتيار معاصر يربطها أولاً بسارتر، لأنه كتب عنها بأسلوب مبسّط ووظفها في مجالات عدة، وبعد ذلك يتطرق إلى معرفة الفلاسفة الآخرين الذين كتبوا عن الوجودية أيضاً أمثال سورين كيرغارد (Soren Kierkegaard) (١٨١٣ ـ ١٨٥٥)، وكارل جاسبير (Karl Jaspers) (١٨٨٣ ـ ١٩٧٣) ومارتن هيدغر، وبالرغم من هذا فقد عاش سارتر نصف حياته مهاناً ومراقباً من قبل السلطات الفرنسية، ما أدّى إلى المساس بسمعته، حيثُ كان هدفاً لعدة محاولات اغتيال من قبل المنظمة العسكرية السرية (OAS) التي ظهرت في الجزائر في بداية الستينيات، نظراً إلى موقفه أثناء الثورة الجزائرية مثله مثل الكاتب أندري مالرو (André Malraux) وزير الثقافة (١٩٥٨ ـ ١٩٦٢) في عهد الجنرال ديغول.

وفكرة الأنثولوجيا، أي **علم الوجود** عند سارتر، تهتم من الناحية الفلسفية بدراسة الفينومينولوجيا (Phenomenology) للوجود، أي ما يسمى بالظاهراتية عند إيدموند هوسرل، ويتمثل الأنثولوجيا عند سارتر في الوجود لذاته /Etre pour soi) Being for Itself)، أي الإنسان أو الشعور أو الوعي، والوجود في ذاته /Etre en soi) Being-in- Itself)، أي العالم أو المادة أو اللاشعور وبمعنى آخر الأشياء غير الواعية، وأخيراً الوجود للغير (Etre- pour- autre/Being for Others)، أي كيف نرى الإنسان من حيثُ علاقته بالآخرين، وبمعنى أوضح فالوجود للغير هو أن الإنسان واعٍ بوجوده كشيء معرف لدى الغير، كذلك واعٍ بوجود الغير ووجودهم في العالم.

وعلى هذا الأساس فسارتر يؤكّد ويقول لا نوجد لأنفسنا فقط بل نوجد للغير، على الرغم من أن سارتر أخذ المصطلحين الوجود لذاته والوجود في ذاته من هيغل (Hegel) فإنه تعمق في دراستهما وطورهما وبخاصة من الناحية الفلسفية. ووضّح

الفرق بينهما بالتفصيل في كتابه **الوجود والعدم**، وفعلاً لقد أكد هربرت سبياغلبرغ (Herbert Spiegelberg) قائلاً: «يمكن لأي أحد أن يعتقد في هذه المصطلحات حتّى ولوفي حالة مفهوم سارتر لهما، للوجود في ذاته والوجود لذاته، والتي تبدو مأخوذة مباشرة من طريقة هيغل الفلسفية»(٥).

إن فكرة الأنثولوجيا عند سارتر تبحث في الحقيقة لتحديد طبيعة الوجود عبر دراسة الوجود الإنساني حيثُ بينت جيلبيرت فاريت (Gilbert Varet) في كتابها **أنثولوجيا سارتر** *(L'Ontologie de Sartre)* قائلة: «إن نقطة الانطلاق في فلسفة سارتر ليست هي حقيقة الإنسان، أو الوجود أي الكينونة، أو سوء الطوية أي سوء النية، أو الإلحاد (بل هي الأنثولوجيا)»(٦).

وعلى هذا الأساس نجد فكرة الأنثولوجيا سيطرت على فلسفة سارتر وعلى رواياته المسرحية وقصصه الأدبية وكتبه ومقالاته السياسية في ما بعد.

رابعاً: أبعاد الحرية

حقيقة أن اهتمامنا بتعريف الأنثولوجيا عند سارتر بإيجاز وكبداية لمعرفة تطور أفكاره من الناحية الفلسفية بخاصة، وذلك لكي نتفهم ونستوعب «فكرة الحرية» التي هي الهدف الملموس لتحرير الإنسان من جميع العوائق والتي نادى بها سارتر قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها. وسارتر يحدد معنى الحرية قائلاً: «إن اختيار حريتك في عالم الفعل أو النشاط الاجتماعي والسياسي أو الخلق الفني شيء، واختبارها في فعل الفهم والاكتشاف شيء آخر»(٧). وعلى الرغم من أن سارتر يهتم بدراسة التحرر أكثر من الحرية، فإن الحرية تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

الحرية الميتافيزيقية، وهي التي تجعل الإنسان واعياً، وعياً كاملاً بالحرية التي يملكها، ويجب عليه أن يواجه ويقاوم كُلّ الأشياء التي تقف أو تعرقل أو تجعل حدوداً لحريته.

---

(٥) Herbert Spiegelberg, *The Phenomenological Movement; a Historical Introduction*, Phaenomenologica; 5, 2nd ed. (The Hague: M. Nijhoff, 1965), vol. 3, p. 472.

(٦) Gilbert Varet, *L'Ontologie de Sartre*, bibliothèque de philosophie contemporaine, histoire de la philosophie et philosophie générale (Paris: Presses Universitaires de France, 1948), p. 2.

(٧) Jean-Paul Sartre, *Literary and Philosophical Essays*, translated from the French by Annette Michelson (New York: Criterion Books, [1955])

مأخوذ من: **سارتر: مفكراً وإنساناً**، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد (القاهرة: كتاب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٧)، ص ١٧٢.

الحرية الفنية، وهي تتمثل في اختيار حرية الإنسان وعلاقته الفنية والخلقية بالآخرين.

الحرية الاجتماعية السياسية، وهي تلك الحرية القائمة على العدم أو النفي، والعدم هو أصل الحرية، والحرية نفسها هي أصل العدم في هذا الكون، والإنسان في واقعه مشروع يعيش بذاته ولذاته، والحرية ملتزمة وتقتضي الاختيار، وحدود حرية الإنسان موضوعية وذاتية في آن واحد. وبالرغم من أن سارتر مهتم بالحرية الاجتماعية السياسية في تطور «فكرة الحرية» التي ينادي بها، والتي تتحدث عن استعباد وقهر الحريات الفردية واستغلالها، فإنه يمزج أو يستعمل الحرية الميتافيزيقية إلى جانب الحرية السياسية كعنصر أساسي في الحياة الاجتماعية للفوارق أو الصراع الطبقي، هذا ما توصل إليه في كتابه الثاني القيم **نقد العقل الجدلي** *(Critique de la raison dialectique)* (١٩٦٠)[٨] وأصبح يهتم أكثر بالحرية السياسية في كتاباته الأخيرة، ملتزماً بما كان يقول في نهاية الأربعينيات:

«إن هدفنا الملموس الذي هو معاصر وواقعي جداً، هو أن نحرر الإنسان. وهذا له ثلاثة جوانب: **أولاً**، الحرية الميتافيزيقية، جعل الإنسان واعياً وحراً كلية وأنه يجب أن يكافح ضدّ أي شيء يساهم في تحديد أو تقييد الحرية. **ثانياً**، الحرية الفنية، تتمثل في توسيع اتصالات الإنسان الحرة مع الأفراد الآخرين من خلال الفن، وبمساعدة ذلك لوضع الاتصالات مع مجال واحد من الحرية. **ثالثاً**، الحرية الاجتماعية والسياسية: تتمثل في تحرير المستضعفين والأفراد والآخرين»[٩]. حقيقة أن سارتر كان مهتماً بالأدب والفلسفة والسياسة، إذ كان موقفه تجاه الصراعات القائمة أثناء شبابه والتنافس الحاد بين الجمعيات والأحزاب السياسية يتمثل في استجوابه مع فرانسيس جونسون (Francis Jeanson) في ما بعد؛ إذ قال سارتر: «لم أكن شيوعياً ولم أكن اشتراكياً: أعتقد بأن بعض الإصلاحات يمكن أن تسمح للمجتمع البورجوازي بالبقاء وإنني مع هذا إصلاحي»[١٠]. علماً بأن سارتر لم ينضم إلى الحزب الشيوعي الفرنسي في الثلاثينيات، لأنه كان يعتقد ويرى بأن الحزب ضعيف سياسياً ومن دون قاعدة شعبية، زيادة على أنّه كان مهتماً بكتابة روايته الشهيرة **الغثيان**، بالرغم من أنه كان يساند سياسة الجبهة الشعبية التي ينظر إليها بأنها تحقق الأمن والاستقرار والسلام

---

(٨) Jean-Paul Sartre, *Critique de la raison dialectique, précédé de questions de méthode* (Paris: Librairie Gallimard, 1960)

(٩) «Jean-Paul Sartre é Berlin: Discussion autour des mouches,» *Verger* (Paris), vol. 1, no. 5 (1948), pp. 109-123.

(١٠) Francis Jeanson, *Sartre dans sa vie* (Paris: Seuil, 1974), p. 294.

والعدالة الاجتماعية في فرنسا والعالم، وتنتصر على أعدائها بحركتها النضالية. إذا قال في ما بعد: «كنت أساند الجبهة الشعبية مساندة كاملة، لكنني لم أنتخب لكي اعبر عن قراري وموقفي، وكنت أشعر بأنني في وسط الجماهير المكتظة والمؤيدة للجبهة الشعبية. والفكرة الغامضة للانتخاب لا تعبر أصلاً وأبداً عن الفكر الإنساني الملموس»[١١].

خامساً: الحرية والمقاومة ضدّ الاحتلال النازي لفرنسا

فعلاً، إن الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥) هي التي غيرت حياة سارتر الفكرية وحولت شخصيته إلى اتجاه آخر، إذ قال: «إن الحرب حقاً ـ قد قسمت حياتي إلى قسمين ـ بدأت عندما كنت في الرابعة والثلاثين من العمر، وانتهت وأنا في الأربعين، وهذا كان بحقّ الانتقال من الشباب إلى سِنّ النضج»[١٢]. وفي هذا الإطار أكدت كوهن سولال قائلة: «إن سارتر ١٩٤٥ لم يكن بسارتر ١٩٣٩»[١٣]. (وأنا بدوري أقول سارتر ١٩٤٥ ليس بسارتر ١٩٦٠)، إذ ألقي عليه القبض في الحرب العالمية الثانية من قبل الألمان مع أكثر من ١٤٠٠٠ جندي فرنسي الذين زجّ بهم في محتشدات ستالاق، وبقي سارتر سجين الحرب حتّى عام ١٩٤١. وفي عام ١٩٥٤ وصف لنا المحتشد قائلاً: «لقد فهمت ماذا كان في إحدى أمسيات نيسان/ أبريل ١٩٤١: ولقد بقيت شهرين في معتقل للمساجين، بل في علبة سمك، وفيها قمت بتجربة التقارب المطلق، وحدود المساحة الحية التي أعيش فيها كانت تتمثل في جسمي، وفي كُلّ نهار وليل أحسست بحرارة كتف أو جهة من الجسم. وهذا لا يحرج: لأن الآخرين هم أيضاً أنا. ومن هذا المحتشد كتب سارتر رسالة شخصية إلى سيمون دي بوفوار قائلاً: «لم أكن أشعر وأحس بفكرة الحرية إطلاقاً، ليس لسبب الحرب أو لظروف أخرى هي التي جعلتني لم أفكر في «فكرة الحرية» بل لسبب «مذكراتي» التي دونتها في كتيب صغير في ما بعد وحررتني من العبودية والأفكار المسبقة، حيثُ كتبت بعض الأفكار العفوية التي تخطر ببالي وأنا أعيش نهايتي»[١٤]. وبعد وفاة سارتر بسنوات عدة، قامت ابنته المتبناة أرليت الكايم (Arlette Elkaïm

---

(١١) *Sartre: Un film*, réalisé par Alexandre Astruc et Michel Contat (Paris: Gallimard, 1977), p. 45.

(١٢) Jean-Paul Sartre, *Situation X* (Paris: Gallimard, 1976), p. 180.

(١٣) Annie Cohen-Solal, *Sartre: A Life*, translated by Anna Cancogni; edited by Norman MacAfee (New York: Pantheon Books, 1987), p. 131.

(١٤) رسالة إلى سيمون دي بوفوار (Simone de Beauvoir) في ٢٦ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٣٩، ورد في: المصدر نفسه، ص ١٤٠.

(Sartre) بجمع هذه المذكرات ونشرها ككتاب بعنوان **يوميات الحرب** *(Carnet de la drôle de guerre)*[١٥]. وفعلاً عندما أطلق سراحه من السجن نظراً إلى صحته النفسية، حاول سارتر أن ينظم ويوحد الأفراد لمقاومة النازيين، حيثُ أكدت سيمون دي بوفوار في ما بعد قائلة: «لقد فاجأني سارتر في مسائه الأول كغير عادته، لم يعدّ إلى باريس للتمتع بحلاوة الحرية كما قال لي بل للعمل والنضال.

كيف؟... اعتقد بأننا منعزلون ومن دون قوة.. ويجب أن نتحد، وننظم حركة المقاومة»[١٦]. وتعتبر هذه الخطوة هي الأولى في حياة سارتر السياسية لاتخاذ موقف أساسي وسياسي تجاه الاستعمار الألماني، وأصبح من هنا يهتم بالنشاطات السياسية والعلمية التي تقوم ضدّ الحكم النازي في فرنسا. وعلى هذا الأساس شارك سارتر في مساعدة تأسيس «فوج المقاومة» الذي سمي في ما بعد «بالحرية والاشتراكية»، وأكد سارتر في ما بعد قائلاً: لقد أسسنا «الحرية والاشتراكية»، وقد اخترت هذه التسمية الصغيرة لأنني كنت اعتقد بأن الاشتراكية أو الحرية يمكن أن توجد[١٧].

وفي ١٩٤٥ قام سارتر بنشر أول عدد لمجلة **الأزمنة الحديثة** *(Les Temps modernes)* حيثُ شارك فيها معظم المفكرين الفرنسيين كسيمون دي بوفوار وريمون آرون وموريس مورلو بونتي... إلخ. وتعهد سارتر في مقدمة المجلة قائلاً: «والخلاصة، نيتنا هي أن نساهم في إحداث التغيير في المجتمع المحيط بنا[١٨]، وهو الهدف الأساسي الذي قامت من أجله هذه المجلة.

لقد تطورت أفكار سارتر وكتاباته السياسية وتوسعت إلى مجالات عدة وبخاصة في بداية الخمسينيات، أي عندما كتب مقالته السياسية بعنوان «الشيوعيون والسلام» (Les Communistes et la paix) التي كانت رداً على سجن السكرتير العام للحزب الشيوعي الفرنسي جاك دوكلوس (Jacques Duclas) في ٢٨ أيار/ مايو١٩٥٢ وهجومه العنيف والشديد ضدّ بورجوازية الدولة وتوسعها على حساب الطبقة العاملة، حيثُ قال إن الحزب الذي يقف بجانب العمال هو الحزب الشيوعي الذي يتماشى مع مصالحهم وتحقيق أهدافهم، إلى جانب ذلك دافع سارتر في هذه المقالة عن الحزب

(١٥) Jean-Paul Sartre, *Carnets de la drôle de guerre: Septembre 1939-mars 1940*, avec la contribution de Arlette Elkaïm-Sartre, blanche, nouvelle édition augmenté d'un carnet inédit (Paris: Gallimard, 1995).

(١٦) Simone de Beauvoir, *The Prime of Life*, translated by Peter Green (London: Penguin Books, 1965), p. 264.

(١٧) Simone de Beauvoir, *Adieux: A Farewell to Sartre*, translated by Patrick O'Brian (London: André Deutsh, 1977), p. 392.

(١٨) Jean-Paul Sartre, «Presentation,» *Les Temps modernes*, no. 1 (1945), p. 7.

الشيوعي الفرنسي وسياسة الاتحاد السوفياتي تجاه المعسكر الاشتراكي، على الرغم من أن سارتر ابتعد عن نشاطات الحزب والتعاون معه منذُ ١٩٤٨، ها هو قد عاد مرة أخرى لمساندته والوقوف بجانبه في ثوب جديد في ١٩٥٢ لكي يكسر الاتهامات التي تقول إنَّه من المؤيّدين لسياسة الولايات المحتدة الأمريكية. وفعلاً هذا التأييد الكامل للحزب الشيوعي الفرنسي بخاصة والاتحاد السوفياتي بعامة لم يكن نهائياً، حيثُ تراجع سارتر عن موقفه مرة أخرى تجاه الشيوعيين عامة عندما هاجم الاتحاد السوفياتي السابق بأسلحته الثقيلة شوارع بودابست سنة ١٩٥٦، وتكررت العملية مرة أخرى في تشيكوسلوفاكيا والتي أصبح فيها الاتحاد السوفياتي يعتبر كقوة إمبريالية بعد الولايات المحتدة الأمريكية، ومن هذه الحوادث الأليمة انقطعت العلاقة بين سارتر والشيوعيين التي كانت بين المدّ والجزر.

لقد ركز سارتر في مقالته هذه على دفاعه عن الحزب الشيوعي الفرنسي، وسياسة الاتحاد السوفياتي الخارجية، وندد بالعمليات التي يقوم بها اليمين الفرنسي المتطرف، واليسار القائم ضدّ الشيوعيين، وهذا يتمثل في الاختيار السياسي لسارتر، حيثُ قال: «كان من المهم رفض هذه الاتهامات إذا أراد الإنسان أن يكون بجانب الأمريكيين، وبعد هذا يبين سياسة الاتحاد السوفياتي تجاه بودابست التي لم توجد في عهد ستالين وعلاقاته مع يوغسلافيا في سنة ١٩٤٨، وكذلك تكرار العمليات في تشيكوسلوفاكيا والتي كانت كأعمال القوة الإمبريالية»(١٩).

وقال في دفاعه عن سياسة الحزب الشيوعي الذي يمثل إرادة الأغلبية في ذلك الوقت، إنَّه هو الممثل الشرعي للطبقة العاملة في فرنسا، حيثُ أعلن مساندته وتأييده الكامل لهذا الأخير مؤكداً: «أبرهن وفقاً لمبادئي وليس لمبادئهم»(٢٠). وفي دفاعه عن سياسة الاتحاد السوفياتي قال سارتر: إن السوفيات يعملون من أجل تحقيق السلام والأمن في العالم، ويعتقد سارتر بأن الاتحاد السوفياتي في استطاعته أن يحتل أوروبا بكاملها في أسبوع بالرغم من القواعد العسكرية الأمريكية المتواجدة في القارة.

حقيقة إن تجربة الحرب العالمية الثانية لها تأثيرها العميق في فكر سارتر، حيثُ إنّه تخلّى عن ما يسمى بالفلسفة التأملية، إذ يرى أن الحرب هي التي كانت السبب الرئيسي في تفكيرنا الاستعمار - والمقاومة، وعلى الرغم من هذه الصعوبات والمحن التزم سارتر بمبدئه ووقف بجانب المضطهدين، حيثُ كان يدرك أن التاريخ

---

(١٩) Jean-Paul Sartre, *Between Existentialism and Marxism: Sartre on Philosophy, Politics, Psychology, and the Arts*, translated by John Mathews (London: Verso 1983).

(٢٠) Jean-Paul Sartre, «Les Communistes et la paix,» *Les Temps modernes*, no. 818 (1952), p. 706.

سيسجل الأحداث، وفعلاً لقد كتب سارتر عند نهاية الحرب قائلاً:

«إننا لم نكن أبداً أحراراً بمثل ما كنا في ظلّ الاحتلال الألماني، لقد فقدنا كُلّ حقوقنا، وبخاصة حقّ التعبير... وأن الاختيار الذي أختاره كُلّ واحد لنفسه كان أصيلاً لأنه كان يعمل بحضور الموت... وهكذا فإن أقوى الجمهوريات قد تأسست في الظلّ وفي الدمّ. كُلّ واحد من مواطنيها يعلم بأنّه مسؤول أمام الجميع، ولكنه لا يمكن له إلا الاعتماد على نفسه. وكُلّ واحد منهم يحقق دوره التاريخي في ظلّ اللامبالاة التامة. كُلّ منهم يعمل من أجل أن يكون هو بذاته في حرية ضدّ المستغلين، كما يختار حرية الجميع»[٢١].

سادساً: حرية المقاومة ضدّ الاحتلال الفرنسي للجزائر

عندما انفجرت الثورة الجزائرية في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٥٤، وبدأت تؤثر في الأوساط السياسية والثقافية، وجد سارتر نفسه يواجه وضعاً سياسياً جديداً: أي التزام نحو وطنه فرنسا من جهة، والتزام نحو فلسفته التي تنادي بتحقيق «فكرة الحرية» من جهة أخرى. وانطلاقاً من مبدئه الذي يقول إن حريتي هي حرية الغير. وفي استجوابه مع سيمون دي بوفوار وضّح سارتر قائلاً: «انظر إلى موقفي تجاه الثورة الجزائرية... وهي الفترة التي تخليت فيها عن الحزب الشيوعي، لأن مطالب الحزب ومطالبي لم تكن واحدة، فالحزب يرى استقلال الجزائر بطريقة خاصة وغامضة، بينما نحن متفقون مع جبهة التحرير الوطني لتحقيق الاستقلال في المستقبل القريب»[٢٢].

ومن أهم المثقفين الذين وقفوا إلى جانب الشعب الجزائري بصدق وإخلاص حتّى تحقيق استقلاله وحريته، كما يتبين لنا من خلال كتاباته ونشاطاته السياسية، هو جان بول سارتر الذي صرح مرات عدة بأن هدفه يتمثل في تحقيق «فكرة الحرية» التي كان ينادي بها قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها، وفي استجوابه مع المجلة الأمريكية **بلاي بوي** *(Playboy)* أكد سارتر قائلاً: «أنا من النخبة المثقفة، ولست من رجال السياسة، لكن كمواطن في استطاعتي أن أشارك مع جماعة الضغط. وهذا يبين لماذا كنت صادقاً ومخلصاً مع الجزائريين وهذا هو في رأيي عمل المواطن. وبما أن مهارتي وبراعتي تكمن في ثقافتي، استطيع كمواطن أن أخدم أو أشارك بالكتابة[٢٣].

وإضافة إلى ذلك يبقى البحث عن الحقيقة مجالاً واسعاً بالنسبة إلى سارتر، إذ

---

(٢١) Jean-Paul Sartre, *Situation III* (Paris: Gallimard, 1949), pp. 11-14.

(٢٢) Beauvoir, *Adieux: A Farewell to Sartre*, p. 367.

(٢٣) «Interview with Jean-Paul Sartre,» *Playboy* (May 1965), p. 74.

يعتقد بأن: «الحقيقة تبقى دائماً للبحث لأنها ليست لها نهاية. . والحقيقة الكلية يمكن التوصل إليها بالرغم من أنّه لا يوجد أي إنسان بإمكانه الوصول إليها اليوم»[٢٤].

نستنتج من خلال ما تقدم بأن الأرضية الأساسية لكتابات ونشاطات سارتر السياسية قبل الحرب العالمية الثانية وأثناءها، حيثُ إنَّ هذه الأعمال المتمثلة في التجربة الفعلية جعلته يحدد لنفسه موقفاً، تجاه الشعوب الأخرى، وسوف نرى كيف بدأ يهتم بالثورة التحريرية للشعب الجزائري مع بعض المثقفين اليساريين الفرنسيين.

إذاً ما هو موقف جان بول سارتر تجاه الثورة التحريرية الجزائرية في سنواتها الأولى؟

إن سارتر الأديب والفيلسوف الذي يمثل الفلسفة الوجودية المعاصرة هو في الحقيقة عند اندلاع الثورة الجزائرية في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٤، كان مهتماً بالنشاطات العلمية والثقافية في فرنسا وخارجها، حيثُ حضر مؤتمرات عدة وملتقيات وندوات في كُلّ من بلجيكا وموسكو وبرلين وبكين بصحبة سيمون دي بوفوار. وفي حزيران/يونيو ١٩٥٥ حضر مؤتمر «حركة السلام» في هلسنكي مع سيمون دي بوفوار حيثُ نادى في تدخله في هذا المؤتمر بنوع جديد من السلام الذي لا يعني أوروبا المستعمرة فقط، بل يمتد ليشمل كُلّ العالم بما فيه العالم المستعمر بخاصة. وهناك قابل الوفد الجزائري الذي شارك في «حركة السلام العالمية»، حيثُ ناقش معهم الوضعية المأساوية في الجزائر والعوامل الأساسية التي أدت إلى قيام الثورة. وأكدت سيمون دي بوفوار قائلة: «نعم. . . لقد التقينا ببعض الجزائريين الذين شرحوا لنا الوضعية في الجزائر»[٢٥]. يبدو أن سارتر تجاهل بطريقة أو بأخرى عوامل انفجار الثورة الجزائرية مثل أغلبية المثقفين الفرنسيين، لأنه كان مهتماً بكتابة روايته **نيكرازوف** *(Nekrassov)* المكونة من ثماني حلقات والتي نشرت فيما بعد في مجلة **الأزمنة الحديثة**، وكذلك كان مشغولاً بتدعيم علاقته السياسية مع المعسكر الاشتراكي. وتدريجياً لاحظ سارتر بأن فرنسا تواجه وضعية جديدة في الجزائر، وأدرك حقيقة هذه الثورة الفتية في ٢٧ كانون الثاني/يناير ١٩٥٦ عندما نادى أندري ماندووز (Andre Mandouze)[٢٦]، أستاذ الأدب في جامعة الجزائر، بجمعية عامة «للجنة العمل» (Comite d'action) في باريس، وقال لهم: «كنت في عاصمة الجزائر

(٢٤) Sartre, *Situation X*, pp.148-149.

(٢٥) Beauvoir, *Adieux: A Farewell to Sartre*, p. 366.

(٢٦) أندري ماندووز كان من المقربين لقيادة جبهة التحرير الوطني أمثال عبان رمضان ويوسف بن خدة، وقد حاول أن يخلق جسر وساطة بينهم وبين الحكومة الفرنسية، انظر: André Mandouze, *La Révolution algérienne par les textes* (Paris: F. Maspero, 1961).

هذا الصباح . . . أبلغكم تحية الثورة الجزائرية»[٢٧]، علماً بأن الحاضرين في القاعة، سال فاغرام (Salle Wagram)، قدموا احتجاجهم وقالوا: «من أجل احترام حقوق الشعب يجب أن يحكم نفسه بنفسه . . . من أجل الحلّ السلمي لمشكلة الجزائر . . . إلخ[٢٨].

ومن هذه الجمعية العامة للمثقفين بدأ سارتر يفكر في تحديد موقفه من الثورة الجزائرية، حيثُ كان يراها في البداية على أنها «مشكلة اقتصادية» ويجب توفير الخبز لتسعة ملايين نسمة، وتقييمه للوضع يرد في العبارة التالية: الشيء الوحيد الذي يمكننا ويجب علينا محاولته ـ هو اليوم الأهم ـ من أجل النضال بجانبه لكي ننقذ كلاً من الجزائريين والفرنسيين من طغيان الاستعمار[٢٩].

وعندما بدأ معظم المفكرين الفرنسيين يكتبون عن الثورة الجزائرية ويبينون نتائجها وأبعادها السياسية وطرق التعذيب التي تمارسها الوحشية والهمجية العسكرية الفرنسية على الجزائريين في المحتشدات المملوءة بالمواطنين الأبرياء، كتب سارتر مقاله الأول في مجلة **الأزمنة الحديثة** (١٩٥٦) بعنوان: «الاستعمار هو النظام» (Le Colonialisme est un système) ونادى بالاعتراف بالجزائر كدولة والدخول في المفاوضات مع جبهة التحرير الوطني الممثل الشرعي للشعب الجزائري. وفعلاً لقد حقق سارتر في صلب الموضوع أو المشكلة، وأدرك بأن البعد السياسي والاقتصادي كان مخططاً من قبل الإدارة الفرنسية، إذ يحلل ويقول:

«نحن فرنسيو المتربول، الدرس الوحيد الذي نستنتجه من المعطيات السابقة أن الاستعمار في حالة تحطيم نفسه بنفسه. . ودورنا هو مساعدة الاستعمار لكي ينتحر ليس فقط في الجزائر ولكن أينما كان، إن أولئك الذين يفكرون في التخلي هم أغبياء لا يمكن التخلي عن شيء لا نملكه أصلاً. بل بالعكس يجب إنشاء علاقات جديدة مع الجزائريين بين فرنسا حرة وجزائر متحررة»[٣٠].

وتدريجياً لاحظ سارتر بأن المشكلة ليست اقتصادية أو سياسية فقط، بل تطورت وأصبحت استغلالية ووحشية حيثُ طبق الجيش الفرنسي طرق وأساليب التعذيب على الشعب الجزائري، وعلى الرغم من أن التعذيب محرم في الأديان السماوية،

---

(٢٧) Cohen-Solal, *Sartre: A Life*, p. 368.

(٢٨) المصدر نفسه، ص ٣٦٨.

(٢٩) Jean-Paul Sartre, «Le Colonialisme est un systéme,» *Les Temps modernes*, no. 123 (1956), p. 1368.

(٣٠) المصدر نفسه، ص ١٣٧١.

وممنوع في جميع القوانين الوضعية. ويذهب معظم المفكرين في تعريفاتهم بأن التعذيب هو الفعل الذي يسبب للإنسان الشعور بالألم القاسي والذي يقوم بالعمل الوحشي اللاإنساني كعقوبة... إلخ والتعذيب عند سارتر أثناء الثورة التحريرية للجزائر: ليس التعذيب مدنياً أو عسكرياً ولا فرنسياً على وجه التخصيص، أنّه وباء يكتسح العصر كُلّه... ولكنه يطبق بانتظام خلف ستار المشروعية الديمقراطية، يمكن تعريفه بأنَّه مؤسسة نصف سرية، فهل أسبابه واحدة في كُلّ مكان؟(٣١)

وفعلاً في مقدمته لكتاب **الاستجواب** *(La Question)* عام ١٩٥٨ لهنري الليغ (Henri Alleg) كتب سارتر عن التعذيب بعنوان «الانتصار» (Une Victoire)، حيثُ أدرك بأن الضحية التي تقاوم طرق التعذيب بنجاح مثل هنري الليغ ـ اليهودي الأصل والعضو في الحزب الشيوعي الجزائري ومحرر جريدة *(Alger Republicain)* والذي ألقي عليه القبض من قبل جلادي الجنرال ـ جاك ماسو (Jacques Massu) في حزيران/ يونيو ١٩٥٧ ـ ويجب على الضحية التي تقاوم بشدة أن تبين إرادتها وشجاعتها فوق ذلك الذي يسمى بـ «الإنسانية»، أي بمعنى آخر ينبه المعذبين ويشجعهم لمقاومة أساليب التعذيب والاستنطاق المفروضة عليهم من قبل الاستعمار الفرنسي الذي كان يعذب من قبل الغستابو الألمان أثناء الحرب العالمية الثانية، حيثُ يؤكّد سارتر ويقول: أما في التعذيب، هذه المباراة الغربية فإنما يقيس الجلاد نفسه بالضحية من أجل صفة الإنسان، وكُلّ شيء يحدث كما لو أنهما لا ينتميان معاً إلى الجنس البشري... يجب على خيانتها أن تحطمها وتخلّص المجتمع منها إلى الأبد، وأن من يستسلم للاستجواب لم يكن يراد فقط قسره على الكلام، وإنَّما هو قد دفع إلى الأبد بصفة كونه: أقل من إنسان(٣٢).

يبدو لي أن سارتر تجاهل تعذيب الجزائريين الذين قاوموا مختلف أساليب وطرق التعذيب، وعانوا من كثرة التشريد منذُ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٥٤، وتدريجياً أصبح سارتر مثل أغلبية المثقفين الأجانب، يدرك حقيقة التعذيب في الجزائر، وهذا عندما قامت غستابو الجنرال ماسو بتعذيب الليغ. وهنا يمكن القول إن سارتر لم يتفهم ولم يسمع عن وضعية التعذيب في الجزائر أو يعلن عنها مثل بقية المثقفين الفرنسيين، وعلى هذا الأساس لا يمكن أن نواجه انتقاداتنا لموقف سارتر نحو تجاهله لطرق التعذيب المفروضة على الجزائريين لأنه لم يشاهد الضحايا، لكن كمثقف يجب أن يلتزم

---

(٣١) جان بول سارتر، **عارنا.. في الجزائر**، ترجمة عايدة إدريس وسهيل إدريس، ط ٢ (بيروت: دار الآداب، ١٩٥٨)، ص ٥٦ ـ ٥٧.

(٣٢) انظر: المصدر نفسه، ص ٦٠ ـ ٦١.

ويقبل هذه «المسؤولية الاجتماعية التاريخية» التي جعلته يوضح قائلاً:

. . . « إنهم يعتقلون هنا وهناك بالمصادفة كُلّ مسلم قابل للاستجواب طوعاً: إلا إذا قدموا شهادة كاذبة أو اتهموا أنفسهم مجاناً بجريمة ما تخلصاً من العذاب. أما أولئك الذين يستطيعون أن يتكلموا، فمن المعلوم أنهم يصمتون، كلهم أو جلهم، فلا (أودين)[٣٣] ولا (الليغ) ولا (غارودج)[٣٤] قد فتحوا أفواههم. ولا شكّ أن جلادي (الأبيار) أوسع معرفة هنا في هذا الصدد»[٣٥].

فعلاً إن أبشع أنواع طرق التعذيب التي فرضت على الجزائريين أثناء الثورة التحريرية، أصبحت كملحمة تاريخية مرّ بها الشعب الجزائري (ومن المفروض أن يكون هناك انتقام، عاجلاً أو أجلاً)، لأن الحكومة الفرنسية كانت تعلم علم اليقين بهذه الطرق الإنسانية والبشعة والقذرة، ولا يمكن للإنسان العادي أو الضعيف أن يستوعبها أو يسمع عنها، حيثُ تدّعي هذه السلطة السياسية بأنها منفصلة تماماً عن القوات العسكرية، ولهذا فهي ليست مسؤولة عن هذه الجرائم البشرية. وعلى الرغم من أن الأدلة التي قدمها أحد الضباط العسكريين غودارد (Godard) عند محاكمته في المحكمة العسكرية بتهمة التمرد والعصيان على سيادة الدولة والانضمام إلى المنظمة العسكرية السرية (OAS) حيثُ أعترف محاميه وقال: أصرح بشرفي أن غودارد، مثل المئات الآخرين من الضباط، يتلقى أوامر من السلطات العليا الفرنسية للتعذيب لكي يتحصل على المعلومات، وأنا لا أعرف ما هي المصالح العليا في السلطة التي تعطي الأوامر في هذا الشأن، ولا نستطيع أن نجد لها أثراً[٣٦].

لقد اهتم سارتر بتطور الثورة الجزائرية، لأنه يرى أن المثقف الواعي يجب أن يقبل «المسؤولية الاجتماعية» لا كممثل عامة المواطنين فقط بل كفرد له مميزات خاصة وفرصة ثمينة، وعبقريته الفذة قد تجعله يؤثر على عامة الناس. والمثقف يجب عليه أيضاً أن يلتزم بمبادئه ومواقفه لكي يدافع عن الإنسان كمفهوم اجتماعي. وهذا المفهوم الذي يكون فيه الوجوديون مثقفون باهتمام، يمكن القول إن هذا هو الذي جعل سارتر يهتم ويلتزم شخصياً بالثورة الجزائرية في نهاية الخمسينيات وبداية

---

(٣٣) مورس أودين (Maurice Audine) أستاذ بجامعة الجزائر وعضو في الحزب الشيوعي الجزائري، ألقي عليه القبض قبل هنري الليغ وعذب بأبشع أنواع طرق التعذيب.

(٣٤) السيدة جاكلين غارودج (Jacqueline Guerroudj) كانت طالبة سيمون دي بوفوار، وهي الطالبة الممتازة التي جاءت إلى الجزائر كمعلمة وتزوجت، وتعذبت مع أعضاء جبهة التحرير الوطني، مثل الجزائريين.

(٣٥) المصدر نفسه، ص ٥٨.

(٣٦) Jean Mark Théolleyre, *Ces procés qui ébranlérent la France* (Paris: Bernard Grasset, 1966), p. 338.

الستينيات حيثُ صدق عندما قال: «يختار الإنسان موقفاً وأن يظل مخلصاً لهذا الموقف الذي يختاره. . . وهذا ما أفعله دائماً».

ومن هنا نستطيع القول إن سارتر التزم بمبادئه ومواقفه التي أعلن عنها قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها في مؤلفاته الأدبية والفلسفية والسياسية عامة، وأثناء الثورة الجزائرية بخاصة، والتي قامت ضدّ الظلم والطغيان والعبودية. ولكن كيف يصف لنا سارتر أنواع التعذيب في الجزائر؟

سابعاً: مقاومة التعذيب

عند نهاية الحرب العالمية الثانية تنفس الشعب الفرنسي الصعداء واستراح من جرائم النازية وطرق التعذيب المطبقة عليهم من قبل جيش الغستابو في الأربعينيات. وفي كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٨، جاء إعلان حقوق الإنسان ومنع ما يسمى بالتعذيب: «لا أحد يوضع موضع التعذيب أو يعامل بسوء المعاملة أو يعاقب بعقوبة قاسية»[٣٧].

وأثناء الثورة الجزائرية عرّف التعذيب كما جاء في اتفاقية جنيف: «فالأفراد. . في جميع الحالات والأوضاع سيعاملون معاملة إنسانية. . وكُلّ الأفعال ستبقى ممنوعة في جميع الأوقات وفي جميع الأماكن. . . وعنف الحياة، وبخاصة القتل بجميع أنواعه. . ويشوه أو يفسد، وحشية المعاملة القاسية، والتعذيب»[٣٨].

بينما التعذيب أثناء الثورة التحريرية: «فكان ضربات بالدبوس على النقرة، لكمات، ماء يبتلع بالقوة، تعليق بالأذرع والأرجل. . . كهرباء في الأصابع وعلة الأذن. . . المغطس. . . ضرب بالسياط على أخمص القدمين وعلى الأجزاء الجنسية. . . كهرباء على الأجزاء الجنسية. . وحين ينتهون من ذلك يغرسون سكيناً بين الكتفين»[٣٩]، والتعذيب عند سارتر الذي أدان فيه فرنسا التي كانت قد أدانت منذُ خمسة عشرة سنة ألمانيا على استعمالها أبشع طرق التعذيب على الشعب الفرنسي، حيثُ ذكرهم بما كانوا عليه أثناء الحرب العالمية الثانية، قائلاً:

«إن الفرنسيين يكتشفون، في غمرة دهشتهم، هذه الحقيقة الهائلة:

---

(٣٧) General Assembly Resolution 217 (111), 10 December 1948, UN Doc, A/810 at 71.

(٣٨) International Committee of the Red Cross, ed., *Basic Rules of the Geneva Conventions and their Additional Protocols* (Geneva: The Committee, 1983), pp. 52-53.

(٣٩) بيار هنري سيمون، **ضد التعذيب في الجزائر**، ترجمة بهيج شعبان (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٥٧)، ص ٥٤ ـ ٥٥.

إذا لم يكن هناك ما يحمي أمة ضدّ نفسها، لا ماضيها، ولا أماناتها، ولا قوانينها الخاصة، وإذا كانت خمس عشرة سنة كافية لتحويل الضحايا إلى جلادين، فذلك لأن الظرف هو وحده الذي يقرره:

فحسب الظروف يستطيع أي كان وفي الوقت نفسه، أن يصبح ضحية أو جلاداً»[٤٠].

على الرغم من أن سارتر أدان استعمال طرق التعذيب في الجزائر ولم يشاهد المعذبين، إلا أنّه حمّل المسؤولية التاريخية الجماعية لفرنسا نحو طرق التعذيب التي ظهرت في بداية الخمسينيات. وهذا التنديد والالتزام الذي التزم به سارتر، لم يكن نابعاً من أفكاره وفلسفته فقط، بل من المسؤولية الاجتماعية وتطور أفكاره وكتاباته التي تنادي «بفكرة الحرية»، والتي تسعى إلى تحقيق حرية الفرد[٤١].

وفي مقدمة كتاب **الاستجواب** لهنري الليغ، كتب سارتر عن البطل الذي قاوم شتى أنواع التعذيب ونجاحه على الجيش الفرنسي الذي يقوم بتعذيبه قصد الحصول على المعلومات بواسطة الألم القاسي، وأي معلومات يريدونها جلادو الجنرال جاك ماسو؟ وهنا استنتج سارتر بأن الليغ قاوم بشجاعة وبإرادة كاملة، وفوق هذا أنّه تجاوز ما يسمى بالإنسانية، وكتب قائلاً:

أما في التعذيب، هذه المباراة الغربية، فإنما يقيس الجلاد نفسه بالضحية من أجل صفة الإنسان، وكُلّ شيء يحدث كما لو أنهما ينتميان معاً إلى الجنس البشري، إن هدف الاستجواب لا يقتصر على إجبار الضحية على الكلام وعلى الخيانة: بل على الضحية أن تشير على نفسها بالصراخ والخضوع على أنها بهيمة بشرية، في عيون الجميع وفي عينيها بالذات. يجب على خيانتها أن تحطمها وتخلص المجتمع منها إلى الأبد. وأن من يستسلم للاستجواب لا يراد فقط قسره على الكلام، وإنّما هو قد دمغ إلى الأبد بصفة كونه: أقل من إنسان[٤٢].

وتجدر الإشارة هنا بأن سارتر كتب سنة ١٩٤٩ روايته المسرحية بعنوان: **موت بلا قبور** (Morts Sans Sepulture)، والتي كانت من دون بطل على الرغم من أن الرواية كانت بطولية، حيثُ نجد خمسة مقاومين في هذه الرواية من دون سلطة، وتحدث

---

(٤٠) Jean-Paul Sartre, *Situation V* (Paris: Gallimard, 1976), pp. 70-73.
نقلاً عن: سارتر، **عارنا... في الجزائر!**، ص ٤٧.

(٤١) Jean-Paul Sartre, *What is Literaturé*, tr. from the French by Bernard Frechtman (New York: Philosophical Library, 1949), p. 29.

(٤٢) سارتر، المصدر نفسه، ص ٦٠ ـ ٦١.

الأشياء لهم من دون أن يقوموا بتغييرها. وفي هذه الرواية نجد المثقف هنري يمثل شخصية مطابقة لأفكار سارتر وبخاصة وعندما كتب قائلاً: «إنك مهتم كثيراً بنفسك، هنري، تريد أن تسترجع وتحرر حياتك. . . الجحيم، وما تطمح إليه هو العمل، وستنقذ حياتك من الصفقات[(٤٣)]. وسيمون دي بوفوار بدورها وصفت الوضع والظروف التي كتب فيها سارتر هذه الرواية وقالت: «لقد فكر سارتر بعمق في التعذيب لمدّة أربع سنوات كاملة، وحده، ومع أصدقائه أيضاً، حيثُ خطرت بباله معظم الأفكار لكتابة هذه الرواية[(٤٤)].

وبعد تسع سنوات من كتابة هذه الرواية المسرحية، يبدو أن سارتر وجد نفسه في الوضعية نفسها، ولكن هذه المرة مع البطل الحقيقي هنري الليغ، الذي قاوم بشجاعة وبإرادة كاملة أساليب التعذيب المطبقة من قبل الجيش الفرنسي في الجزائر، وبهذه الطريقة أدرك سارتر حقيقة التعذيب المفروضة على الشعب الجزائري، وندد بهذه الطرق البشعة التي تقلل من قيمة الإنسان وتجعله مثل الحيوان الذي يئن عند موته، وكتب قائلاً:

«لقد فرض التعذيب نفسه تلقائياً، وقد أصبح «روتينياً» قبل أن يلاحظ الناس ذلك، غير أن الحقد البشري الذي يتمثل فيه إنَّما يعبّر عن العنصرية لأنه إنَّما يراد تهديم الإنسان نفسه بكل صفاته الإنسانية: الشجاعة والإرادة والذكاء والأمانة، الصفات نفسها التي يطالب بها المستعمر. ولكن إذا أستخف الغضب بالأوروبي إلى درجة أن يحتقر صورته نفسها، فذلك لأن عربياً قد عكس هذه الصورة»[(٤٥)].

إن الليغ هو أول من بلّغ الرأي العام الفرنسي والعالمي عن طرق التعذيب المفروضة على الشعب الجزائري منذُ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٥٤، وفي كتابه، **الاستجواب** شرح لنا كيف تمّ تعذيبه من قبل السلطات العسكرية الفرنسية في الجزائر، والتي أصبحت وتحولت إلى غستابو الخمسينيات، حيثُ تفتخر وتعتز بهذا التشبيه للجيش النازي الألماني، إذ قال: «حسناً، الفرنسي! وقف بجانب الفئران ضدنا؟ . . .» منبطحاً! . . .»

لقد حاربنا في الهند الصينية وهذا يكفينا لكي نعرف أمثالك، هنا غستابو! هل

---

(٤٣) Jean-Paul Sartre, «The Victors,» in: Jean-Paul Sartre, *Three Plays*, translated from the French by Lionel Abel (New York: A.A. Knopf, 1949), p. 78.

(٤٤) Simone de Beauvoir, *Force of Circumstance*, translated from the French by Richard Howard (New York: Putnam, [1965]), p. 112.

(٤٥) سارتر، **عارنا. . في الجزائر!**، ص ٦٣ ـ ٦٤.

تعرف معنى غستابو؟ وبعدئذ بسخرية وبتهكم: إذاً لقد كتبت مقالات حول التعذيب أيها اللقيط! حسناً! والآن هو دور القسم العاشر للجنود المظليين الذين سيقومون بعملهم لك[٤٦].

حقيقة أن الجلادين يصفون أنفسهم بالأكابر والعظماء والأقوياء، وأيضاً يشبهون أنفسهم بغستابو الخمسينيات لأنهم يريدون إقناع أنفسهم أولاً ثمّ ضحيتهم ثانياً وذلك بالسلطة الخفية، حيثُ يحاولون أن يقنعوا ضحيتهم بأنها لا تنتمي إلى عالمهم، كما قال سارتر: ما هؤلاء الجلادون أولاً؟ أهم ساديون؟ أم هم ملائكة غاضبون؟ أم هم أسياد حرب ذوو أهواء مرعبة؟ إن كان علينا أن نصدقهم فإنهم خليط من هذا كُلّه... إنهم يودون أن يقنعوا أنفسهم ويقنعوا الضحية بسيادتهم المطلقة... فالمهم أن يشعروا السجين بأنَّه ليس من جنسهم: ولذلك يعرونه من ثيابه ويربطونه بشدة ويهزأون منه، ويمر الجنود بالقرب منه ذهاباً وإياباً، يقذفونه بشتائم وتهديدات بلامبالاة تريد أن تكون هادئة[٤٧].

وفعلاً إن التعذيب الذي ظهر في الجزائر بعد تسع سنوات من انتهاء الحرب العالمية الثانية، نبه الرأي العالمي وبخاصة في حزيران/ يونيو ١٩٥٧ ـ أي عندما تعذبا الفرنسيان أو دين الليغ اللذان تعاطفا مع أهداف جبهة التحرير الوطني، وكسبا المساندة والتأييد من بعض المثقفين الفرنسيين، وذلك لكونهما فرنسيين على الرغم من أن الشعب الجزائري بمختلف شرائحه طبقت عليه شتى أنواع التعذيب، فالشباب والشيوخ والنساء وحتى الأطفال، تعذبوا بوحشية قاسية وذلك لإجهاض الثورة وتحطيم أهداف وآمال الشعب الجزائري المتمثلة في الاستقلال والحرية ـ لقد اعترف أحد الضباط الفرنسيين الذين شاركوا في «حرب الجزائر» وهو بيار اليولات الذي نشر وثائقه المجمعة أثناء الثورة التحريرية (١٩٥٤ ـ ١٩٥٧) «كوثائق الجزائر» (Documents: Algérie) حيثُ كتب في هذه الوثائق قائلاً بما أن التعذيب أصبح من الطرق الرسميّة التي تستعمل للبحث عن ما يسمى «بالاستنطاق» للحصول على المعلومات قصد التقليل من العمليات الفدائية وضبط الحركة النضالية، فإن فرنسا قامت بتأسيس مؤسسات التعذيب أكثر من تأسيسها لمدارس التعليم ومستشفيات المرضى، إذ يوجد في كُلّ ثكنة جناح خاص للتعذيب ومجهز بأحدث الوسائل وأغلبها كانت مستعملة من قبل الجيش النازي، وكتب الضابط اليولات عن المؤسسة العسكرية التي ينتمي إليها: بأن الجلادين كانوا ينامون أثناء النهار ويقومون بهجمات

---

(٤٦) Henri Alleg, *The Question*, translated by John Calder (London: Lalder, 1958), p. 41.

(٤٧) سارتر، المصدر نفسه، ص ٥٢ ـ ٥٣.

سرية في الليل لقتل الأبرياء أو لحرق المنازل والبيوت القصديرية لانتهاك حرمات المسلمين في مخابئهم، أو لصحب المشبوهين وتعذيبهم في الغرف المخصصة لهم، وهذه العملية أصبحت روتينية عند جلادي الخمسينيات(٤٨). ويرى صاحب هذه الوثائق بأن هذه المجموعة التي تقوم بتعذيب وجلد الأبرياء الجزائريين، تبنت الطريقة القديمة الموروثة من الغستابو النازية، ومنهم من يدعي بأنَّه من منطقة الألزاس (Alsatiens) قصد تقريبهم للألمان وبتثبيت وزرع فكرة الغستابو في ذهنية ضحيتهم. وفعلاً إن هذه الأعمال المتوحشة التي أصبحت عادية بالنسبة إلى الجيش الفرنسي في الجزائر، كانت خطة جهنمية يقوم بتنفيذها والإشراف على تطبيقها الضباط، قصد إخماد نار الثورة، حيثُ كتب اليولات في مذكراته قائلاً:

«هذه الفرق الخاصة تشتغل بالاعتماد على رحمة النقيب المثقف، الذي لا يؤمن بوجود اليأس والألم ـ وبخاصة ألم الغير. لقد كانوا ثلاثة أفواج يشتغلون في هذه الأعمال اللاإنسانية ويدخنون (لكي يتمتعوا بالمناظر البشعة ولكي لا يملوا من هذا الروتين).

وهدفهم ينحصر في تعذيب المساجين العراة، واحد تلو الآخر من الصباح إلى الليل، وتحت رقابة مشددة لهيئة الاستنطاق(٤٩).

وسارتر بدوره لم يلتزم الصمت أو السكوت تجاه تصرفات وسلوك الجلادين تجاه المعذبين، وإنَّما ندد بشدة بالحكومة الفرنسية وبوحشية السلطات العسكرية، ويذكرهم فيما كانوا عليه أثناء الحرب العالمية الثانية، قائلاً:

«في عام ١٩٤٣ في شارع لوريستن كان فرنسيون يصرخون من القلق والألم، وكانت فرنسا كلها تسمعهم آنذاك، ولم يكن مصير الحرب أكيداً، ولم نكن نود أن نفكر في المستقبل، ومع ذلك فإن شيئاً واحداً كان يبدو لنا مستحيلاً. أن يكون باستطاعتنا أن نجعل رجالاً يصرخون يوماً ما بسببنا. والمستحيل ليس كلمة فرنسية:

ففي عام ١٩٥٨ يعمد في الجزائر إلى التعذيب المستمر المنتظم، والكُلّ يعلم ذلك من السيد لاكوست إلى مزارعي لا فيرون، ولا أحد يتكلم عن ذلك، أو أن أصواتاً تتلاشى في السكون، لم تكن فرنسا تحت الاحتلال أبكم منها الآن، بالرغم من أنها كان لها العذر في أن تحمل السلاح»(٥٠).

---

(٤٨) Pierre Leulliette, *St. Michael and the Dragon; Memoirs of a Paratrooper*, translated by John Edmonds; with a foreword by Max Lerner (Boston, MA: Houghton Mifflin, 1964), p. 233.

(٤٩) المصدر نفسه، ص ٢٣٢.

(٥٠) سارتر، المصدر نفسه، ص ٤٦.

ويؤكد سارتر بأن هدف الجلادين لم يتمثل في الحصول على المعلومات لنشاطات الحركة التحريرية كما يدعون، أي معلومات يريدونها، بل هو في الحقيقة أن يستسلم الضحية «للاستجواب» ويشعر بأنَّه «أقل من إنسان»، وعلى هذا الأساس ندد بوحشية القرن العشرين المرتكبة ضدّ الإنسانية والتاريخ البشري حيثُ قال:

وبعد، فما جدوى إقلاق ضمير الجلادين؟ إذا فكر أحدهم بأن يقول شيء، أسرع الآخرون إلى الردّ عليه بقولهم: (إذا فقدنا إنساناً فإننا نجد عشرة بدلاً منه). . . لا، إنَّه لا يكفي أن نعاقب بعض الأفراد ونعيد تربيتهم، ولن نستطيع أنسنة حرب الجزائر، فقد قام فيها التعذيب تلقائياً، وأدت إليه الظروف وعمقته النعرات العنصرية،

وإذا كنا نود أن نضع حداً لهذه الأعمال الوحشية القذرة الكئيبة، وأن ننقذ فرنسا من العار وننقذ الجزائريين من الجحيم، فليس أمامنا إلا وسيلة واحدة: أن نفتح المفاوضات ونعقد السلام[٥١].

النصر للجيش الفرنسي لكي لا يشعروا بالهزيمة التاريخية مهما كانت نتائج المعارك الحربية التي ينتهجونها في مستعمراتهم، وإن أهم المميزات التي منحت لتحويل السلطة العسكرية إلى الجزائر هي طرق التعذيب، حيثُ يبدو أن سيمون دي بوفوار على صدق عندما قالت:

« . . . وعندئذ نتأكد بأن هناك كالعادة حصة التعذيب». وكأن يسير على وتيرة واحدة طبعاً، المهماز الكهربائي، الغطس في البرميل المملوءة بالماء، والشنق، اغتصاب حرمات المسلمين، القمع، إعدام الأفراد حرقاً، قلع الأظافر، قطع عظام الأشخاص ودائماً البرنامج نفسه، لكن نحن لا نرى سبباً لتغيير موقفنا وصوتنا حتّى يغيّر الجيش والشرطة موقفهما»[٥٢].

حقيقة أن أثناء الثورة التحريرية لم تهتم العدالة الفرنسية بتطبيق ما يسمى «باتفاقية جنيف»، وبمحاكمة جلادي الخمسينيات الذين قاموا بتعذيب الجزائريين بأبشع أنواع طرق التعذيب، والتي هي جريمة في حقّ الإنسانية. وعلى هذا الأساس يجب محاكمتهم كما قامت السلطات الفرنسية والأوروبية معاً في الثمانينيات بمحاكمة أحد العسكريين الألمان الذين اتهموا بالجرائم ضدّ الإنسانية أثناء الحرب العالمية الثانية، وذلك عملاً بما يسمى عندهم «باتفاقية جنيف» حيثُ قامت الحكومة الفرنسية مرة أخرى بفتح «ملف الجرائم»: وفعلاً استطاع جلادوها أن يقنعوا الرأي

---

(٥١) المصدر نفسه، ص ٦٥ ـ ٦٦.

(٥٢) Beauvoir, *Force of Circumstance*, pp. 391-392.

العام العالمي ويحاكموا كلوز باربي (Klaus Barbie) الجلاد النازي أثناء الحرب العالمية الثانية المكلف بمهمة تعذيب سكان منطقة ليون في فرنسا (The Longer You Live, the More You See) وعلى هذا الأساس، فالحكومة الجزائرية يجب عليها أيضاً أن تفتح ملف التعذيب الذي عانى منه الشعب الجزائري أثناء الثورة التحريرية ١٩٥٤ ـ ١٩٦٢، كما فتحت فرنسا من جديد ملفات غستابو الأربعينيات.

الأستاذ جاك فيرجي (Maitre Jacques Verges) المحامي الفرنسي الذي دافع عن كلوز باربي والمثقف اليساري الذي كان ضدّ سياسة الاستعمار الفرنسي. باربي ٧٣ سنة، ورئيس الغستابو في منطقة ليون، حيثُ قامت العدالة الفرنسية في حزيران/يونيو ١٩٨٧ بمحاكمته على الجرائم اللاإنسانية المتهم بها أثناء الحرب العالمية الثانية. الأستاذ فيرجي ركز في دفاعه على طرق التعذيب المطبقة من قبل السلطات العسكرية الفرنسية في الجزائر، والجرائم البشعة واللاأخلاقية التي ارتكبتها فرنسا في الجزائر، وبعبارة أخرى الأستاذ المحامي فيرجي حاول أن يضع فرنسا نفسها في ميزان العدالة وأن يضعها موضع ألمانيا(٥٣). يبدو أن كلود بوردات (Claude Bourdet) كان على صدق عندما أكد وقال أثناء الثورة الجزائرية: إنهما مانديس فرانس وفرنسوا ميتران المسؤولان قبل الرأي العام وقبل التاريخ(٥٤).

فعلاً إن الدلائل التي قدمت إلى محكمة ليون لم تكتشف عن جرائم النازية في فرنسا فقط، بل كشفت وذكرت الجيش الفرنسي وجرائمه الوحشية في الجزائر، وبينت من جديد تاريخ فرنسا الأسود أمام الرأي العام العالمي، فالأستاذ جاك فيرجي، المدافع الرئيسي لكلوز باربي، ذكّر مرة أخرى العدالة الفرنسية، بأن فرنسا هي الأخرى قامت بتعذيب الجزائريين وتشريدهم من بلادهم ونفيهم إلى الدول المجاورة وقتلهم من دون تمييز، وحرق المداشر والقرى والمدن، أي أن هذه الجرائم في حقّ الإنسانية سجلت كنقطة سوداء في تاريخ فرنسا، كما سجلت جرائم النازية في تاريخ ألمانيا. وإضافة إلى ذلك دعم الأستاذ فيرجي عريضته للدفاع بأدلة عدة كشهود عيَان عاشوا هذه الملحمة التاريخية، وبمجاهدين جزائريين ومناضلين كانوا قد نفيوا من بلادهم، وجندي فرنسي حضر كشاهد عيان في تعذيب الجزائريين. هذه الأدلة والبراهين كلها في الحقيقة تذكّر فرنسا بتاريخها الأسود والمحاكمة في حدّ ذاتها «تعتبر تمثيلية تحريرية زائفة»(٥٥).

إن العدالة الفرنسية المتحضرة تبلغ الرأي العام العالمي عن الجرائم التي كانت

---

(٥٣) *Times*, 15/6/1987, p. 9.

(٥٤) Claude Bourdet, «Votre gestapo d'Algérie,» *France observateur* (janvier 1955), p. 21.

(٥٥) *Times*, 17/6/1987, p. 8.

ضدّ الإنسانية في الأربعينيات وتحاول أن تهمل جرائمها التي ارتكبتها في مستعمراتها وبخاصة في الجزائر. وأعتقد بأن جون ماري لوبان (Jean Marie Le Pen)، الأمين العام لحزب الجبهة الوطنية (Front National) وعضو في البرلمان الأوروبي ستراسبورغ (Strasbourg)، كان على صدق عندما حاول أن يتهم رجال السلطة الفرنسية، لا بتطبيق أساليب التعذيب على الجزائريين أثناء الثورة التحريرية فقط بل بعرضهم على تجارب المفاعل النووية في صحراء الجزائر والمحيط الباسيفيكي. إذاً هذه الجرائم التي كانت ضدّ الإنسانية والتي التزمت بها فرنسا في تاريخها المعاصر، من هو المسؤول عنها اليوم؟ العدالة الفرنسية! القوات العسكرية الفرنسية! الحكومة الفرنسية! اليمين الفرنسي المتطرف! أو هل اليسار الفرنسي المحافظ؟ فأنا لا أريد أن أناقش هذه النقطة بالتفصيل، وإنّما أريد أن أقترح على الحكومة الجزائرية «الحالية أو الآتية» أن تفتح ملف التعذيب من جديد وتحاكم الفرنسيين الذين تسببوا في جرائم ضدّ الإنسانية أثناء الثورة الجزائرية التي قامت ضدّ العبودية والطغيان والظلم، من أجل تحرير الإنسان من الاستغلال بجميع أشكاله. وهذا ما قامت به فرنسا في أواخر الثمانينيات مع كلوز باربي. وعلى هذا الأساس يجب على الجزائر أن تحاول تقديم كُلّ الجنرالات والضباط الفرنسيين إلى العدالة، أي للمحاكم الدولية.

وتجدر الإشارة في هذا الموضوع بأن الدول الغربية حاولت مرات عدة أن تتهم الدكتور كورت فالدهايم (Dr. Kurt Waldheim) أيضاً الأمين العام السابق للأمم المتحدة ورئيس النمسا سابقاً، بتورطه في جرائم ضدّ الإنسانية التي ارتكبت ضدّ اليهود وبخاصة أثناء الحرب العالمية الثانية. وحاولت الدول الأوروبية التي تتعاون مع الجالية اليهودية في الولايات المتحدة الأمريكية لكي تقنع الرأي العام العالمي بعدة أدلة لا أساس لها من الصحة. واليهود الذين تعذبوا بأبشع أنواع طرق التعذيب أصبحوا الآن جلادين. إذ يعذبون ويقتلون ويشردون الفلسطينيين من بلادهم، أي أنهم يعاملون المسلمين في فلسطين كما كانوا يعاملون من قبل النازيين، والشيء الذي يثير الدهشة والإعجاب الآن هو أن العالم الغربي المتحضر الذي وقف اليوم صامتاً وساكتاً أمام هذه الجرائم المرتكبة في حقّ الإنسانية في إسرائيل، وفي حقّ الشعب الفلسطيني. فعلاً إن التاريخ يعيد نفسه.

وأمام هذه الأوضاع المأساوية التي يعاني منها الشعب الجزائري، قرر سارتر أن يقوم بتنديده العنيف ضدّ وحشية الاستعمار الفرنسي في الجزائر، وذلك بكتاباته ونشاطاته السياسية، حيثُ كتب روايته المسرحية القيمة التي تبين نوايا الاستعمار الفرنسي في الجزائر ومقارنته بالنازية في أوروبا **سجناء التونا** عام ١٩٥٩ (Les Sequestres d'Altona) وهي تعالج الأساليب المفروضة على الشعب الجزائري والمطبقة

بطرق حديثة. وهذه المسرحية قدمت بإحدى مسارح باريس، وتهتم بطرق التعذيب التي يمارسها الجيش الفرنسي في الجزائر. إذ كتب سارتر في ما بعد قائلاً: «موضوعي هو أن رجل شاب عاد من الجزائر شاهد بعض الأشياء ويمكن أنّه شارك معهم، والتزم السكوت»(٥٦). ولقد حاول سارتر تعريف هدف هذه الرواية قائلاً: «فالأوضاع السياسية في فرنسا جعلت شفاء بعض الأشخاص بالأمر الإلزامي من أجل المجتمع، على الرغم من قذارة الوحشية التي ارتكبوها»(٥٧).

وهنا نستنتج بأن موقف سارتر تجاه المعذبين الجزائريين كان إيجابياً، لأنه حاول أن يبين الجرائم الناتجة من التعذيب في الجزائر وقهر ما يسمى بحقوق الإنسان. ويرى سارتر أن الفرنسيين وجدوا أنفسهم في الوضعية نفسها التي يعاني منها الشعب الجزائري التي كانوا عليها أثناء الحرب العالمية الثانية، حيثُ كتب قائلاً: «وفي أثناء الحرب عندما كانت الإذاعات الإنكليزية أو الصحافة السرية تتحدث عن أورادور (Oradour)، كنا ننظر إلى الجنود الألمان الذين كانوا يتنزهون في الشوارع نظرة بريئة، وكنا نقول أحياناً: إنهم من ذلك رجال يشبهوننا، فكيف يكون باستطاعتهم أن يفعلوا ما فعلوا؟ وكنا فخورين بأنفسنا لأننا لم نكن نفهم»(٥٨).

حقيقة أن الفكرة الأساسية التي تهتم بها مسرحية سارتر هي التعذيب، وشخصية البطل فرانس في هذه الرواية المسرحية كرجل تعذب وعذب أثناء الحرب العالمية الثانية والثورة الجزائرية، لقد اعترف بذلك وأصبح متهماً، إذ إنَّ حياته كانت عبارة عن عبودية للغير، **أولاً** كانت مسلوبة من قبل أبيه، **وثانياً** من قبل هتلر، والآن أصبح فرانس يعيش على أوهام ذاكرته، ويعتقد سارتر بأنَّه لا يمكن لفرانس أن يتقبل شخصيته في هذه الظروف.

من هنا نستطيع القول إن سارتر قد طور موقفه الفكري تجاه نضال الشعب الجزائري من أجل الاستقلال والحرية، وهذا يتمثل في مقالة لهنري الليغ حول التعذيب عندما أكد قائلاً: «إنَّه بكل بساطة جريمة دنيئة وحمقاء يرتكبها بشر، ضدّ بشر آخرين. . . إن اللاإنساني لا يوجد في أي مكان، إلا في الكوابيس التي يولّدها الخوف»(٥٩).

---

(٥٦) Paolo Caruso, «Interview with Jean-Paul Sartre,» *New Left Review*, no. 58 (November-December 1969), and Jean-Paul Sartre, *Sartre on Theatre*, edited by Michel Rybalka; translated from French by Frank Jellinek (London: Quartet Books, 1976), pp. 259-260.

(٥٧) المصدر نفسه، ص ٢٦٠.

(٥٨) سارتر، **عارنا.. في الجزائر!**، ص ٤٧.

(٥٩) المصدر نفسه، ص ٥٢.

وعند كتابة روايته المسرحية التي تهتم بطرق التعذيب وسياسة الجيش الاستعماري في الجزائر سنة ١٩٥٩، كتب عن هذه الفكرة وطورها مرة أخرى والتي تدعم بدورها الحياة الكاملة للروح الشريرة للجانب غير الإنساني. إذ كتب قائلاً: كالليل في توافقه مع النهار. إنهم يدعون أمام الله آكلة بشر، ويدعون أن الله ينصت إليهم لأنهم قد كسبوا الحرب، ولكني سأظل على ثقة من أن آكل البشر الحقيقي هو المنتصر. اعترف أيها الجندي أعترف بأنك لم تطلب آكل اللحم البشري... أين هو شرفك؟ المذنب هو أنت، إن الله لن يدينك بأفعالك.. بل بما لم تجرؤ على فعله... بالجرائم التي كان يجب أن ترتكب والتي لم ترتكبها. المذنب أنت! أنت! أنت![٦٠].

لقد أهتم سارتر في روايته المسرحية التي تعالج التعذيب والجرائم المرتكبة في الجزائر، حيثُ ركز على العدو ـ والمتعاون مع الاستعمار ـ وأوروبا المستعمرة وعلى النظام الرأسمالي، والمشاهدون لهذه المسرحية يكتشفون بأن البطل فرانس هو وصفاً حقيقياً لسياسة فرنسا الاستعمارية، هل حقيقة جرائم فرنسا كانت ثقيلة في تاريخها المعاصر، وسارتر كفيلسوف ملتزم بكتاباته الفلسفية بعامة «وبفكرة الحرية» بخاصة، حاول أن يكشف الغطاء عنها في شكل من أشكال النازية؟ وهذا هو تعريفه لبطل فرانس في فرنسا. كان سارتر يؤكّد بأن الألمان هم الأعداء، وأثناء حرب الجزائر أصبحت فرنسا هي العدوة والمجرمة، لأنها مرت في تاريخها بوحشية الاستعمار الألماني، وعلى هذا الأساس اعتقد بأن سارتر كان على صدق عندما كان يبحث عن «فكرة الحرية» في شبابه، وقال «الجحيم هو الغير» (Hell is Other People)، لكن لماذا وكيف تطور موقف سارتر تجاه الثورة التحريرية الجزائرية في بداية الستينيات؟ وما هي نشاطاته الفكرية الداعمة لحرية الشعب الجزائري؟ وهل فعلا تجسدت «فكرة الحرية» التي كان ينادي بها في شبابه؟

قبل التطرق إلى موقف جان بول سارتر تجاه الثورة الجزائرية في بداية الستينيات، رأينا من الأفضل أن تتحدث بإيجاز عن نشاطاته الثقافية وكتاباته السياسية التي تطورت وأصبحت تساند القضية الجزائرية.

حقيقة أن من بين التزاماته «بفكرة الحرية»، هو التنديد بشدة بوحشية الجيش

---

(٦٠) جان بول سارتر، **ثلاث مسرحيات: سجناء الطونا، الممثل كين، الشيطان والرحمن**، ترجمها عن الفرنسية عبد المنعم الحفني (القاهرة: دار الثقافة، [ـ ١٩؟])، ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠.

الفرنسي في الجزائر، حيثُ كتب سارتر في نهاية الخمسينيات **سجناء التونا**، لكي يبين للرأي العام كيف يمارس التعذيب على الشعب الجزائري، على الرغم من أن صحته النفسية كانت متدهورة بحسب سيمون دي بوفوار، وفي ٤ كانون الثاني/ يناير ١٩٦٠ توفي ألبير كامو (Albert Camus)، الخصم الأساسي والمعارض الوحيد لأفكار سارتر، وقد حزن وتأسف سارتر لموته نظراً للتعاون الثقافي والصداقة التي كانت بينهما قبل نشوء الخلافات والمناظرة التاريخية بينهما. إذ كتب سارتر في ما بعد عن حياة كامو وفلسفته في مجلة **فرانس أبزرفاتور** *(France observateur)*.

وإضافة إلى النشاطات السياسية والتنديد بالأعمال الوحشية ضدّ الشعب الجزائري، ازدادت شهرة سارتر العلمية في بداية الستينيات، وبخاصة عندما ألف كتابه[٦١] الفلسفي الثاني القيم **نقد العقل الجدلي** *(Critique de la raison dialectique)* بعد كتابه الأول والمهم في الفلسفة المعاصرة **الوجود والعدم** الذي ظهر في عام ١٩٤٣. حقيقة أن **نقد العقل الجدلي** ظهر كدراسة تاريخية لإعادة النظر في الماركسية كأيديولوجية القرن، والتي بدأت في بداية الخمسينيات كفلسفة جديدة تنادي بتحرير الإنسان من الاستغلال الطبقي والصراع السياسي والثقافي والاجتماعي. ولقد وعدنا سارتر بكتابة الجزء الثاني من هذا الكتاب لكنه مع الأسف لم يظهر هذا الجزء، كما قال في نهاية كتابه الأول **الوجود والعدم**، حيثُ ادّعى في نهاية الكتاب بأنَّه سيكتب كتاباً في «علم الأخلاق» الذي يبحث في ما ينبغي أن يكون عليه السلوك الإنساني لكنه لم يظهر.

لقد تطور موقف سارتر تجاه الثورة الجزائرية في بداية الستينيات، إذ دعم «فكرة الحرية» التي كان ينادي بها أثناء الحرب العالمية الثانية. وفي شباط/ فبراير ١٩٦٠ قام بزيارة إلى كوبا مع سيمون دي بوفوار، وتقابل مع الرئيس الكوبي فيدال كاسترو (Fedel Castro)، وزار جامعة هافانا حيثُ ناقش مع الطلبة تطورات الثورة الكوبية وقارنها بالثورة الفرنسية والثورة الروسية. إلى جانب هذه النشاطات عقد ندوة صحافية في التلفزة الكوبية. وفي هافانا التقى مع بعض المثقفين البرازيليين واستدعوه لكي يلقي محاضرة تندد بالسياسة الديماغوجية الفرنسية تجاه الثورة الجزائرية، وذلك لمساندة الحركات التحررية في العالم الثالث وتدعيم الاتجاه اليساري في البرازيل. وعند عودته إلى باريس كتبت جريدة **فرانس سوار** *(France- Soir)* حوالى ست عشرة مقالة بعنوان «عاصفة فوق السكر»، وهي عبارة عن تقارير من جان بول سارتر عن فيدال كاسترو.

---

(٦١) Sartre, *Critique de la raison dialectique, précédé de questions de méthode*

وهذه الزيارة التي قام بها سارتر إلى كوبا أحدثت تغيرات في اتجاه الرأي العام الفرنسي نحو سياسة سارتر ومبدئه الثابت، حيثُ كتبت جريدة **لوموند** *(Le Monde)* عنواناً في إحدى صفحاتها تقول «السيد جان بول سارتر رسم خطين متوازيين بين كوبا والجزائر». ومن هنا أصبح سارتر لا كفيلسوف وأديب وروائي فقط، بل كمفكر سياسي عالمي يهتم بالعلاقات الدولية، إذ حضر لحفل الاستقبال الذي نظمه خروتشوف (Kraushchev)، رئيس الاتحاد السوفياتي سابقاً، بالسفارة السوفياتية في باريس. وفي أيار/ مايو ١٩٦٠ استدعي سارتر من قبل إتحاد الكتاب اليوغسلافيين، حيثُ استقبل من قبل الرئيس الماريشال تيتو (Marshal Tito) وألقى محاضرة في جامعة بلغراد، ومع هذا، فالقضية الجزائرية «ما زالت تسيطر على حياته السياسية والأدبية».

وفي تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦١ شارك سارتر في مظاهرة سلمية احتجاجاً ضدّ القمع والقتل الجماعي للعمال الجزائريين المتظاهرين في ١٧ تشرين الأول/ أكتوبر في باريس والتي حققت نجاحاً سياسياً للثورة الجزائرية. وفي ١٣ كانون الأول/ ديسمبر حضر في جمعية واسعة نظمها ممثل جبهة التحرير الوطني السيد الطيب بولحروف، وممثلون من اليسار الإيطالي حول استقلال الجزائر. ونظراً إلى كتاباته السياسية ونشاطاته الثقافية حول القضية المصيرية للشعب الجزائري منحت له (سارتر) جائزة أوميغا (Omega Price) في ميلانو بإيطاليا.

حقيقة أن بعض المثقفين اليساريين الفرنسيين أيدوا سارتر وسياسته تجاه الثورة الجزائرية؛ ففي بداية أيلول/ سبتمبر ١٩٦٠، قام ١٢١ مثقفاً فرنسياً بإمضاء بيان رسمي أصبح يدعى (Le Manifeste des 121) وهو يدافع عن الحقوق الشرعيّة للشعب الجزائري، حيثُ أكدوا:

«ـ إننا نحترم ونحكم مبررين رفضنا لحمل السلاح ضدّ الشعب الجزائري.

ـ إننا نحترم ونحكم مبررين سلوك أو تصرفات الفرنسيين الذين يرغبون ويرون أن من واجبهم مدّ يد العون وحماية الجزائريين المقهورين باسم الشعب الفرنسي.

ـ وقضية الشعب الجزائري التي تساهم بطريقة حاسمة في تدمير النظام الاستعماري هي قضية كُلّ الأفراد الأحرار»[٦٢].

ومعظم الموقعين على الإعلان التاريخي كانوا من المثقفين العاملين بمجلة **الأزمنة الحديثة**، التي يديرها سارتر وسيمون دو بوفوار والروائي ميشال بوتور (Michel Butor) وعالم الاجتماع ماكسيم رودينسون (Maxime Rodinson) وكذلك ابنة فلورنس

---

(٦٢) *Le Droit à l'insoumission: Le Dossier des «121»* (Paris: F. Maspero, 1961), p. 18.

(Florence) والزوجة السابقة كلارا (Clara) لوزير الثقافة أندري مالرو. حقيقة الموقف هنا يثير الدهشة والحيرة؟ أي كيف يمكن أن ينضم بعض المثقفين الفرنسيين إلى جانب نضال الشعب الجزائري في تقرير مصيره، ويتمردون على نظام بلادهم، ويقومون ضدّ سياسة رئيس الجمهورية الجنرال ديغول تجاه الجزائر! إذاً ما هو رد فعل السلطات الفرنسية نحو الذين أعلنوا عصيانهم لفرنسا؟

وفي ٢٨ أيلول/ سبتمبر من السنة نفسها أعلن الوزير الأول الفرنسي ميشال ديبري (Michel Debré) بأن الحكومة ستتخذ الإجراءات الصارمة ضدّ «الشبكات السرية» التي تدعوا إلى التمرد والعصيان ومساعدة الذين يرفضون واجب الخدمة العسكرية والهاربين منها، لتوظيفهم في نشاطاتها العملية والسياسية. وأصدر بياناً يمنع كُلّ المثقفين المؤيّدين والمتعاطفين مع الثورة الجزائرية وبخاصة «بيان ١٢١» بعدم ظهورهم في التلفزيون والراديو والمسرح، وقد قامت أيضاً بسجن الصحافي الكاثوليكي لمدّة أسبوعين، حيثُ عثرت الشرطة في مكتبه على ١٧٠ نسخة من هذا البيان، وأوقفت خمسة صحافيين، إلى جانب ذلك هناك عملية بحث وتفتيش وتمشيط لمقرات الجرائد والمجلات التي تندد بالحرب من قريب أو بعيد منها: **فرانس أوبزرفاتور** *(France observateur)* **الإكسبرس** *(L'Express)*، *Les Temps modernes, Verité Liberté, Esprit*. إن «البيان ١٢١» جعل الحكومة الفرنسية في معضلة، إلا أنها اتخذت موقفاً وسطياً، حيثُ تجاهلت بعض الموقعين، وقامت بالحد على البعض، وبخاصة الذين تعتقد بأنهم زعماء الفتنة، ولكي لا تقع في ورطة وتفلت الأمور من يدها مع أنصار «الجزائر الفرنسية»، والأحزاب اليمينية قامت بمعاقبة بعض المثقفين. وفعلاً في ٣ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٦٠ قام أنصار ومتعاطفو «الجزائر الفرنسية» وما أكثرهم، بتنظيم أكبر تظاهرة عنيفة وشديدة اللهجة بشعاراتها العنصرية ضدّ الموقعين على «البيان ١٢١» من سبعة إلى ثمانية آلاف عضو في الجمعيات والمنظمات السياسية وبخاصة منهم أعضاء الجيش المتقاعدين، ونظموا مسيرة كبرى انطلقت من ساحة قوس النصر (Arc de Triomphe) في باريس احتجاجاً ضدّ الذين تمردوا وأعلنوا عصيانهم على النظام الفرنسي، وساندوا الشعب الجزائري في تقرير مصيره. وقبل انطلاقهم في هذه المسيرة رددوا شعاراتهم المألوفة: «وقفوا صامتين من أجل الذين دفعوا ضريبة ثقيلة وماتوا من مدنيين وعسكريين الذين سقطوا تحت نير جبهة التحرير الوطني»[٦٣] وأغلبية المتظاهرين والمحتجين كانوا ينادون بأصوات مختلفة منها الشتم واللعن لكُلّ موقعي «البيان ١٢١» وبخاصة سارتر، حيثُ يصرخون بأصوات عالية ويقولون:

(٦٣) Cohen-Solal, *Sartre: A Life*, p. 426.

أعدموا جان بول سارتر (Fu-llez -Jean -Paul Sartre)

الجزائر فرنسية (Al-gé-rie -Fran -çaise)

حرروا الزعماء (Li -be-rez-la gai- llarde)

صالان في السلطة (Salan-au-Pou-voir)

وأكد سارتر في ما بعد، وقال لم نكن مهددين بالسجن والشتم والخوف فقط، بل كنا مهددين بالموت من أجل الدفاع عن قضية الشعب الجزائري، إذ كان أنصار «الجزائر الفرنسية» ينادون في مسيرتهم بشانزوليزيه (Champs Elysee) «الموت لسارتر». وقال أيضاً: «نعم في ذلك الوقت... فالحكومة الفرنسية تريد محاكمتي من أجل إمضائي للبيان مثل ١٢٠ الموقعين الآخرين»[٦٤]. وعلى الرغم من أنّ سارتر صرح عدة مرات بأنّه لم ينتم إلى أي منظمة أو حركة تنتمي إلى الثورة الجزائرية، لقد عمل وفعل ذلك بإرادته والتزاماً لمبادئه ومواقفه، وكذلك إيمانه «بفكرة الحرية» الاجتماعية السياسية التي كان ينادي بها قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها، وعلى هذا الأساس كان شيئاً طبيعياً بالنسبة إليه أن ينضم إلى حركة المثقفين لإمضاء «البيان ١٢١» لصالح الشعب الجزائري حيثُ صرح في استجواب له لمجلة *(Verité)*: ... فاليسار الفرنسي يجب عليه أن يتضامن مع جبهة التحرير الوطني... انتصار جبهة التحرير الوطني سيكون انتصاراً لليسار الفرنسي»[٦٥].

أما ردّ فعل وسائل الإعلام الفرنسية تجاه الموقعين على «البيان ١٢١» فكان عنيفاً، كما كان متوقعاً، وبخاصة الصحافة اليمينية التي اهتمت بالموضوع واعتبرته كتمرد على فرنسا، حيثُ علقت عليه لمدّة شهرين، وكانت تشتم صاخبة سارتر وتتهمه بالعداوة والخيانة لفرنسا... إلخ. ونجد جريدة **باري برس** *(Paris-Press)* كتبت في صفحاتها الأولى عنوان: جان بول سارتر، سيمون سيغنورت ومئة آخرين جازفوا بخمس سنوات سجناً[٦٦]. إضافة إلى ذلك قامت الأحزاب والجمعيات السياسية اليمينية بتنديدها الشديد لهذه الأعمال المتمردة ضدّ شرف وكرامة فرنسا. وسارتر كان أكثر اتهاماً وتورطاً بالنسبة إلى الموقعين «للبيان ١٢١» حيثُ أكد في ما بعد: «لقد صرخنا احتجاجاً، كما أمضينا، وركزنا على صدقية الإمضاءات، وقد أعلنا بحسب عاداتنا في التفكير: «أنّه لا توجد إمكانية للقبول...» أو «للبروليتاريا التي لا تقبل...»، «وفي

---

(٦٤) المصدر نفسه، ص ٤٢٦.

(٦٥) Beauvoir, *Adieux: A Farewell to Sartre*, p. 369.

(٦٦) *Paris-Press*, 8/9/1960.

الأخير إننا موجودون وحاضرون: إذن لقد قبلنا كُلّ شيء لقد تعلمنا شيئاً واحداً: أن مبدأنا ضعيف»(٦٧).

إن النشاطات السياسية والعملية التي قام بها سارتر لمساندة الشعب الجزائري لا تدعم وتشجع اليسار الفرنسي فقط، بل تدعم الحركات الثورية في العالم الثالث وتشجعها على مواصلة نضالها وكفاحها ضدّ الاستعمار والإمبريالية. ومن هنا يمكن أن نطرح الأسئلة التالية عن هذه النشاطات السياسية لسارتر ـ هل هي حقيقة لصالح الشعب الجزائري أم هي نابعة من المسؤولية الاجتماعية؟ ـ وهل الجزائريون يعتبرون سارتر مناضلاً في ثورتهم المقدسة؟

تاسعاً: العنف، إرهاب أم مقاومة؟

وفي دفاعه عن الثورة الجزائرية أكد سارتر وقال إن من العوامل المزيفة والمخادعة أن نصف جبهة التحرير الوطني «بالجبهة الإرهابية» لأن الأسباب الأساسية التي دفعتهم إلى استعمال القوة والعنف، هو أسلوب الاستعمار، وهذا الأخير يركز على العنف أولاً، فأسلوبه يتمثل في الاحتلال ثُمّ باستعمال طرق عدة للاستغلال والاضطهاد، وعندما يحاول أن يقوم بمعاهدة صلح ينبه قائلاً: أريد أن أحذركم مما يمكن أن يسمى (خداع الاستعمار الجديد)، إن الاستعماريين الجدد يذهبون إلى أن هناك مستعمرين صالحين ومستعمرين أشراراً، وأن حالة المستعمرات إنّما ساءت بسبب هؤلاء الأشرار(٦٨).

وعلى هذا الأساس نستنتج بأن الاستعمار الفرنسي في الجزائر قد خلق وجعل الإنسان يؤمن بالعنف والقوة كسلاح أساسي لاسترجاع كرامته وحريته، وتجدر الإشارة هنا إلى أن سارتر هاجم ذلك الأسلوب اللاأخلاقي للنظام البرجوازي قبل الحرب العالمية الثانية في كتابه **الغثيان** (عام ١٩٣٨)، وأثناء الثورة الجزائرية ظهر الأوروبيون على حقيقتهم «وتجردوا من إنسانيتهم» وأكتشف الشعب الجزائري بأن هناك أيديولوجية زائفة للنظام الفرنسي وتبرير مثالي للنهب والسلب يحاول أن يقنع به المضطهدين(٦٩).

وفي تحليلنا لفلسفة سارتر وتطوره الفكري انطلاقاً من الاضطهاد والاستغلال، إلى استعمال العنف والقوة، نجد أنّه قد أكد أثناء الحرب العالمية الثانية في كتابه

---

(٦٧) Nizan, *Aden-Arabie*, pp. 13-14.

(٦٨) سارتر، **عارنا.. في الجزائر!**، ص ٥.

(٦٩) *Le Monde*, 13/12/1969, p. 15.

الوجود والعدم بأن العنف هو العنصر السلبي في الحياة السياسية، وأثناء المقاومة الفرنسية أدرك سارتر بأن الثورة ضدّ الاستعمار من العناصر الأساسية لمكونات العنف والقيم الأخلاقية والشخصية الوطنية، وباستعمال العنف ندافع عن حريتنا لأن الإنسان هو «مشروع الحرية».

وهذه الفكرة سيطرت على فلسفة سارتر قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها، حيثُ طورها في الستينيات في كتابه **نقد العقل الجدلي** عندما تحدث عن الحرية الفردية والتاريخ البشري، والعنف كعنصر أساسي لتحرير الإنسان من الاستغلال وكذلك من المسؤولية الاجتماعية[٧٠].

أما في كتابه **الوجود والعدم**، فقد أهتم سارتر بالطبقة المضطهدة والتطور الاجتماعي والسياسي لهذه الفئة حيثُ كتب قائلاً:

«والمولى» (سيد الإقطاع)، «والسيد الإقطاعي»، و«البرجوازي»، «الرأسمالي» يبدون لا كأقوياء يتحكمون ويأمرون فقط، بل وأيضاً، وقبل كُلّ شيء كأطراف ثالثة، أي أولئك الذين هم في خارج الجماعة المضطهدة والذين من أجلهم هذه الجماعة توجد، فإن بالنسبة إليهم وفي حريتهم توجد حقيقة الطبقة المضطهدة، وهم يجعلونها تتولد بنظرتهم[٧١].

ويرى سارتر بأن تحطيم هذا الاضطهاد وإزالته يجب على المضطهدين أن يحاربوا هذا الاستغلال بالإرادة الكاملة، ويدركوا شروط التغيير الاجتماعي والصراع الطبقي، إذ أكد سارتر قائلاً: «... ولهم وبهم تنكشف هوية حالي وحال المضطهدين الآخرين، وبالنسبة إليهم أوجد في موقف منظم مع آخرين، وممكناتي بوصفها ممكنات ـ مدينة تساوي تماماً مع ممكنات الآخرين. وبمعنى هذا أنني أكتشف «نحن» (للدلالة على الإنسانية المعذبة)»[٧٢].

وإضافة إلى ما تقدم، نجد سارتر درس التاريخ لأنه يهتم بدراسة الحوادث الماضية للشعوب، وجوهرياً فالتاريخ مفهوم إنساني صنع من قبل الإنسان والإنسان

---

(٧٠) فعلاً أن هزيل بارنس (Hazel Barnes) الفيلسوفة الأمريكية التي كتبت عند سارتر والفلسفة الوجودية عامة، أكدت وقالت إن فلسفة سارتر وكتاباته ونشاطاته السياسية واضحة ومرتبطة ارتباطاً علمياً من البداية إلى نهاية تطور أفكاره، والسارتريون هم الذين عقدوا أفكاره الفلسفية وشرحوها بطريقتهم الخاصة (رسالة للكاتب من هزيل بارنس).

(٧١) جان بول سارتر، **الوجود والعدم: بحث في الأنطولوجيا الظاهراتية**، ترجمة عبد الرحمن بدوي (بيروت: دار الآداب، ١٩٦٦)، ص ٦٧٢.

(٧٢) المصدر نفسه، ص ٦٧٢ ـ ٦٧٣.

هو المبدع لخلق الأشياء في هذا العالم، وسارتر يدرك حقيقة «الوعي التاريخي» للإنسان، حيثُ يرى أن الوعي هو وعي الأشياء الحقيقة، وهذا ما جاء به في كتابه الأول **الوجود والعدم**، وطوّر هذه الفكرة في ما بعد في كتابه الثاني **نقد العقل الجدلي**، وحلل سارتر في هذا الأخير نقاطاً أساسية عدة كالعلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمعات المختلفة والمتطورة، وهو يرى: «... العنف الوحيد الذي يمكن تصوره هو المتمثل في الحرية ضدّ الحرية التي تكون من قبل وساطة مصطنعة لشيء»(٧٣). وهنا تجدر الإشارة إلى أن هذا القول يمكن أن يحدث في الحياة الشخصيّة للفرد عبر «نظرية سوء الطوية» لسارتر (Bad faith -mauvaise foi) (Self-deception)/ أو التحليل الاجتماعي عبر الشيء المجرد الذي يصبح مادياً في التاريخ.

إضافة إلى ذلك، ركز سارتر في طرحه لفكرة العنف على توعية الرأي العام الفرنسي الذي يقوم بحرق المسلمين ودفنهم أحياء باسم المحافظة على الحضارة الأوروبية «والجزائر الفرنسية».

يبد أن هناك انتقادات ومعارضة شديدة لما جاء به سارتر في مقدمته لفانون أكثر مما أكده فانون شخصياً، على استعمال العنف كسلاح أساسي لتحرير الإنسان من قيود الاستعمار، لأن كشف طرق التعذيب المطبقة على الشعب الجزائري هو كشف النقاب عن الجرائم الفرنسية المرتكبة في حقّ الإنسانية، وإذا قارناها بجرائم النازية أثناء الحرب العالمية، نجدها أرحم. وسكوت الرأي العام الفرنسي عنها وبخاصة المثقفين اليساريين الذين يدّعون بأنهم أهل المبادئ السامية «حريتي هي حرية الغير» على هذه الحرب تعتبر جريمة في حدّ ذاتها، إذ قتلت أكثر من مليون جزائري، ودمرت المداشر والقرى والمدن، وشردت الأهالي من ديارهم، وبهذا أصبحت هذه الحرب إجرامية ومسؤولية تاريخية في تاريخ فرنسا الأسود.

وفي تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٦١ في باريس نظمت مسيرة العنف من قبل الأحزاب اليسارية وشارك فيها حوالى ١٠٠٠٠٠ شخص، وذلك للتنديد بالأعمال الإجرامية التي تقوم بها السلطات العسكرية الفرنسية والأحزاب اليمينية المتطرفة والعنصرية في فرنسا ضدّ المهاجرين الجزائريين الذين يتعرضون للقتل يومياً، ولقد صرح سارتر في أحد استجواباته بأن جثث الجزائريين تلقى يومياً في قناة سان مارتان (Canal de Saint-Martin) في باريس، وأثناء المسيرة قامت الشرطة بقمع المتظاهرين وتسببت في جرح أشخاص وخسائر مادية عدة.

---

(٧٣) Sartre, *Critique de la raison dialectique, précédé de questions de méthode*, p. 689.

حقيقة أن الحرب التي دامت أكثر من سبع سنوات، وقتلت أكثر من مليون ونصف شهيد لتحرير الجزائر، ودمرت كُلّ ما هو قابل للتدمير، وخربت كُلّ ما هو قابل للتخريب، وزرعت الفوضى والبلبلة في صفوف الأبرياء قصد تشتيتهم ونشوب حروب أهلية في ما بينهم. بينما الحكومة الفرنسية حاولت مرات عدة أن تقنع الرأي العام العالمي بأن الثورة الجزائرية هي حركة من حركات الشيوعية التي يدعمها المعسكر الشرقي الاشتراكي وجعلها منطقة إستراتيجية في شمال أفريقيا تابعة للغزو الشيوعي كما خطط لينين (Lenine) طريقة تقسيمه للعالم، أي من بكين إلى باريس[(٧٤)]، وكتب سارتر في ما بعد قائلاً:

عندما رجعت من المعتقل الذي كنت فيه كأسير في ١٩٤١، نعم يبدو أنّه من الممكن ومن السهل لتأسيس «مقاومة». لقد بحثت عن الأشخاص وقلت «سنقاوم هؤلاء الألمان»... إلخ. وبالفعل المجموعة الصغيرة التي أسسناها وكوناها كانت ممزقة تماماً نظراً إلى الأوضاع السائدة وتدريجياً زالت. لقد كان من المهم... أن تتماسك وتترابط هذه المجموعة وتتحد على قاعدة صلبة. أقدم لكم هذا المثل الحيّ[(٧٥)] على الرغم من أن موقف سارتر وكتاباته السياسية تجاه الثورة الجزائرية كانت إيجابية ولصالح نضال وكفاح الشعب الجزائري، من أجل استرجاع سيادته الوطنية من مخالب الاستعمار منذُ ١٩٥٦، أي عندما التزم كمثقف صاحب مبادئ فكرية يعبر عنها بقلمه في دورية **الأزمنة الحديثة**، لم يحضر لأكبر تظاهرة تاريخية عاشها الشعب الجزائري بمناسبة استقلال الجزائر التي احتلها الاستعمار الفرنسي أكثر من قرن. وفي ٥ تموز/ يوليو١٩٦٢، احتفل الشعب الجزائري بعيده التاريخي الأول لاستقلال الجزائر والذي لم ينسَ في تاريخ الحركة الثورية للشعب الجزائري، بينما سارتر الذي وقف بإمكانياته المتواضعة إلى جانب الثورة التحريرية لم يحضر هذا الاحتفال التاريخي لأسباب عدة أهمها:

١ ـ أن سارتر كان مهتماً «بمؤتمر السلام» (Peace Conference) الذي أنعقد في موسكو من ٩ إلى ١١ تموز/ يوليو.

٢ ـ تفرغ سارتر إلى كتابة مسيرة طفولته، أي قصة حياته والتي نشرت في ما بعد بعنوان **الكلمات** *(Les Mots)*.

---

(٧٤) Tony Smith, «Idealism and People's War: Sartre on Algeria,» *Political Theory*, vol. 4 (1973), p. 446.

(٧٥) Jean-Paul Sartre, *Les Communistes ont peur de la révolution*, Controverses; no. 5 (Paris: J. Didier, 1968), p. 40.

٣ ـ أنّه لم يُدعَ رسمياً من قبل الحكومة الجزائرية الموقتة على الرغم من التأثير الذي أثره على الرأي العام الفرنسي عامة، وقيادة جبهة التحرير بخاصة.

٤ ـ أن سارتر كمثقف التزم «بفكرة الحرية» التي كان ينادي بها قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها.

عاشراً: مسؤولية المثقف

وفي تقييمنا لموقف سارتر الذي التزم شخصياً بالمسؤولية الاجتماعية كمفهوم سياسي، وكمثقف أهتم بتطوير أفكاره تجاه «فكرة الحرية» التي كان ينادي بها قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها، حيثُ صرح مرات عدة بأن حريته هي حرية الغير. وفي كتابه **الوجود والعدم**، قال سارتر إن الإنسان هو المسؤول عن نفسه وعن وجوده في هذا العالم، وأكد بأن ما يحدث لي يحدث لي بنفسي ولا استطيع أن أتأثر به ولا أن أتمرد عليه ولا أن أذعن له . . . فإن كُلّ ما يقع لي هو لي، وينبغي أن نفهم، إنني دائماً على مستوى ما يقع لي، بوصفي إنساناً، لأن ما يحدث لإنسان بواسطة أناس آخرين وبواسطته هو لا يمكن أن يكون إنساناً[٧٦].

ومن هنا نستنتج بأن التزامات سارتر لنظريته الفلسفية مرتبطة مع كتاباته للثورة الجزائرية، ويرى بأن قبوله للوضع كفرد فهو مسؤول عن هذا الوضع الاجتماعي والسياسي والثوري، كما يبين في أحد استجواباته قائلاً: عندما التزم شخصياً بطريقة أو بأخرى للسياسة سأقوم بالعمل الفعلي ولا أتخلى عن فكرة الحرية. عكس ذلك، في الوقت الذي أعمل فيه أشعر بالحرية. وأنا لن أنتمي إطلاقاً إلى أي حزب . . . يمكنك ملاحظة موقفي أثناء حرب الجزائر، في ذلك الوقت انفصلت فيه عن الحزب الشيوعي لأن سياسة الحزب تجاه حرب الجزائر وسياستنا كانت مختلفة تماماً، فالحزب له تصور خاص باستقلال الجزائر التي لم تكن من أحد الإمكانيات التي تتفق مع الأخرى. بينما نحن متفقون مع جبهة التحرير الوطني في تحقيق الاستقلال في المستقبل القريب. نحن والشيوعيون حاولنا إعادة العلاقات مع بعضنا من جديد في بعض الأمور، كإنشاء حركة ضدّ المنظمة العسكرية السرية[٧٧]. وهنا تجدر الإشارة إلى أن الحرية الحقيقية التي كان ينادي بها سارتر وبخاصة التي جعلته ينظر إلى الاستعمار كوسيلة ضدّ الإنسانية وكعمل فعلي

---

(٧٦) سارتر، **الوجود والعدم: بحث في الأنطولوجيا الظاهراتية**، ص ٨٧٣.

(٧٧) Beauvoir, *Adieux: A Farewell to Sartre*, p. 367.

لتحطيم حرية الإنسان من أجل استغلاله باسم التقدم والحضارة، حيثُ إنَّ هذه الحرية جعلت سارتر مفكراً يدافع عن حرية الآخرين، وجعلت الاستعمار شيئاً دنيئاً. وعندما زار سارتر البرازيل تحدث في محاضراته حول «حرية الشعب الجزائري»، وصرح للحاضرين بأنَّه وجد ذلك الارتباط والاتفاق في تطور فلسفته، أي بين حريته الخاصة والحرية كنهاية في ذاتها، وتطور الحرية وأفعالها ضدّ أي شيء يمكن أن يتدخل مع ذاتها، لأن هذا هو عمل الآخرين[٧٨]. وفعلاً لقد كان هذا السؤال المطروح في قضية الاستعمار وأيضاً في «حرية الشعب الجزائري» كأكبر طرح لمشكلة الحرية ونهايتها المطلقة.

وفي تقييمنا لهذه الدراسة حول النشاطات السياسية وتطور موقف جان بول سارتر تجاه الثورة الجزائرية منذُ عام ١٩٥٦، رأينا من الأحسن والأفضل أن نطرح هذه الأسئلة على أنفسنا. كيف ولماذا تطورت كتابات سارتر السياسية لصالح الثورة الجزائرية من عام ١٩٥٦ إلى عام ١٩٦٢؟ وما هي الفائدة التي حققها نتيجة وقوفه إلى جانب الشعب الجزائري؟ وما هو ردّ فعل وطنه فرنسا تجاه موقفه؟ هل هو حقيقة عدو فرنسا؟

حقيقة أن سارتر دافع وشجع كُلّ من يساند الثورة الجزائرية، وشارك في تظاهرات عدة ضدّ الأعمال الإجرامية المتوحشة التي تقوم بها السلطات العسكرية الفرنسية في الجزائر يومياً أثناء الثورة التحريرية، وحضر في جمعيات سياسية عدة التي نددت بطرق التعذيب والقتل البشع في الجزائر، وتحدث عن الحرية وحقوق الإنسان في الجزائر في ندوات صحافية داخل فرنسا وخارجها، وحضر في محاكم عدة لمحاكمة المناضلين، كما حاول أن يؤسس يساراً فرنسياً ضدّ الحرب وضدّ سياسة ديغول. وعلى هذا الأساس قالت آني كوهن سولال في كتابها **سارتر**: «إن حرب الجزائر كانت حربه»[٧٩]. علق رونالد دوماس، محامي «الشبكة السرية» لجونسون، بعد خمس وعشرين سنة قائلاً: «لقد مرت الحرب الأهلية الإسبانية على سارتر، كما مرت عليه الجبهة الشعبية، المقاومة؟ نعم، لكن كانت قليلة. . . كان يتجنب كُلّ الحوادث السياسية المهمة في ذلك الوقت باستثناء حرب الجزائر، التي كانت بطريقة أخرى، السبب الأكبر لبناء شخصيته العظمى»[٨٠]. وفعلاً أنّه في بداية الستينيات

(٧٨) المصدر نفسه، ص ٣٦٨.

(٧٩) Cohen-Solal, *Sartre: A Life*, p. 440.

(٨٠) المصدر نفسه، ص ٤٤٠.

ظهرت تطورات في كتابات ونشاطات سارتر تجاه الثورة الجزائرية، ويبدو أن الرأي العام الفرنسي اتخذ موقفاً عقلياً وعاطفياً مع سارتر أو ضده، فالمعارضة تعتقد أن سارتر ذهب بعيداً في مساندته للجزائريين في تحقيق حريتهم واستقلالهم عوضاً عن شعبه، وكتب الصحافي أندري بريسود (Andre Brissaud) ممثل الجناح اليميني الفرنسي في جريدة **لو فيغارو** *(Le Figaro)* قائلاً: فرنسا الحقيقية يجب أن تحطم لكي يكون هناك انتصار لفرنسا السارترية والفكرة الثورية لفرنسا التي أرادها السيد جان بول سارتر بديلها لفرنسا، وفي فرنسا السارترية، وفي فرنسا هذه «بالنسبة إلى التفكير الفردي» هي جبهة التحرير الوطني التي هي الجيش الحقيقي، بينما الجيش الفرنسي أصبح مكروهاً، والعدو الذي لا يمكن التسامح معه، شيء يشبه الوارث لجيش هتلر في الأربعينيات[(٨١)].

وعلى هذا الأساس نجد أن الجزائر لم تنكر أبداً وقوف ونضال بعض المثقفين اليساريين الفرنسيين الذين ساهموا بإمكاناتهم المتواضعة والفعالة لتحقيق السلام في الجزائر، وفي كتابه **تشريح الحرب** *(Autopsie d'une guerre)* قال فرحات عباس (رئيس الحكومة الجزائرية الموقتة، أيلول/ سبتمبر ١٩٥٨ ـ آب/ أغسطس ١٩٦١). «رجال يقطعون» سياسة السكوت «. . . ويساندون ويحتجون ضدّ الحرب القائمة في الجزائر ويؤيدون المفاوضات والسلم. . . فهناك صحافيون، على الرغم من المخاطر التي تثقلهم يضعون أقلامهم في خدمة الجزائر، ويدافعون على تحريرها»[(٨٢)]. وفي ما بين عام ١٩٦٢ وعام ١٩٦٤ أصبح سارتر شخصية فذة لا كأديب وفيلسوف سياسي فحسب، بل كمثقف اتسم بالعصيان والتمرد، وعلى هذا كان يلقب في هذه الفترة بأسماء عدة، منها «رجل الفضائح»، «رجل الحكمة»، «رجل الحقيقة».

وفي ٢٢ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٦٤ أعلن الدكتور أوسترلينغ (Osterling)، عضو في الأكاديمية السويدية، عن جائزة نوبل للأدب وقال: «جائزة نوبل منحت هذه السنة للكاتب الفرنسي جان بول سارتر على عمله، الذي كان روحاً للحرية واسماً للحقيقة، والذي كان له أكبر تأثير على عصرنا»[(٨٣)]. لكن سارتر مع الأسف رفضها لسببين كما وضّح في ما بعد للأكاديمية السويدية. **السبب الأول**، هو أنّه رفض جائزة نوبل لكي يبقى مستقلاً وملتزماً بمبادئه ومواقفه، كما قال: «الكاتب

---

(٨١) *Le Figaro*, 30/9/1960.

(٨٢) Ferhat Abbas, *Autopsie d'une guerre: L'Aurore* (Paris: Marnier Fréres, 1980) pp. 189-190.

(٨٣) Gustav Bjurstrom, «Nobel Acádemy Archives, Stockholm, Courtesy of Carl,» in: Cohen-Solal, *Sartre: A Life*, p. 446.

يجب أن يرفض أن يحول إلى مؤسسة[٨٤]... حيثُ يرى بأن الكاتب يجب أن يعيش لحقيقته. و**السبب الثاني**، الذي جعله يرفض الجائزة هو أنها منحت له أثناء الحرب الباردة، وانتهاء حرب الجزائر التي هدد خلالها بالموت مرات عدة، وكان يتمنى أن تمنح له الجائزة خلال الحرب المتوحشة التي فرضت على الجزائريين، حيثُ أكد سارتر: أثناء حرب الجزائر حينما وقعنا البيان ١٢١، كان بإمكاني قبول الجائزة باستحقاق، لأنها لم تكن لتشرفني أنا فقط، ولكنها كانت تشرف الحرية التي نكافح من أجلها، ولكن ذلك لم يكن إلا بعد نهاية القتال حينما منحت لي الجائزة[٨٥].

---

(٨٤) Michel Contat [et] Michel Rybalka, *Les Ecrits de Sartre; chronologie, bibliographie commentée* ([Paris]: Gallimard, [1970]), p. 402.

(٨٥) المصدر نفسه، ص ٤٠٣.